الحياة الأدبية
فى عصر صدر الإسلام

أ . د. محمد مختار جمعة مبروك

أستاذ الأدب والنقد

والعميد الأسبق لكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

جامعة الأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعـــد:

فإن عصر صدر الإسلام – الذي يبدأ ببعثة النبي ﷺ وينتهي بتولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة سنة إحدى وأربعين من الهجرة – يمثل نقطة تحول هامة، بل قل: يمثل أهم نقطة للتحول فى تاريخ البشرية، فقد بعث الله تعالى رسوله محمد بن عبد الله ﷺ رحمة للعالمين، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، من الكفر إلى الإيمان، من الشرك إلى التوحيد، من الضلالة إلى الهدى، من حزب الشيطان إلى حزب الرحمن، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [1].

فقد بعث الله تعالى رسوله ﷺ وأنزل كتابه مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، فحد حدودا، وفرض فرائض، وسن النبي ﷺ سننا، فأحدث ذلك كله تغييرا كبيرا لم يشهد التاريخ مثله.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

لقد صحح الإسلام المفاهيم العقدية الخاطئة، فدعا الناس إلى عبادة الله تعالى وحده، وكفهم عن الشرك وعبادة الأصنام والأوثان.

وقد أصلح الإسلام حياتهم السياسية والاجتماعية، وأقامها على أساس من هديه وتعاليمه، فحارب العصبية القبلية، وقضى على كل ألوانها وأشكالها، وبين أن الناس لا يتفاضلون بلون، ولا جنس، ولا لغة، ولا مال، ولا حسب، إنما هو مقياس واحد يتفاضل به الناس جميعا هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

وقضى على العادات الجاهلية من سفك الدماء، ووأد البنات، والخمر والميسر، والأنصاب والأزلام، وسائر الموبقات.

وأقام منهجه على أساس من العدالة والشورى والمساواة، وحرص خلفاء الرسول ﷺ على أن يجندوا أنفسهم لخدمة الإسلام والمسلمين، فملؤوا الدنيا عدلاً ورحمة وبرًا، مما جعل الناس يهرعون إلى هذا الدين ويدخلون فيه أفواجا.

وإلى جانب هذا التغير العقدي والسلوكي كان القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ قد أحدثا تغييرًا مماثلاً في حياتهم الفكرية والأدبية، وهذا ما ندرسه في الحديث عن أثر القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في اللغة والأدب.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

على أن الإسلام قد رفع من شأن الخطابة، وأعلى رايتها، وأضفى عليها شيئا من القداسة، فتبوأت مكانا عليا بين فنون القول وألوان الأدب، وقد أفردت لها فصلاً خاصًا تحدثت فيها عن عوامل ازدهارها، وأغراضها، وخصائصها الفنية.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى الشعر في عصر صدر الإسلام، فنتحدث عن موقف الإسلام منه، وأثره فى موضوعاته، وعن أهم خصائصه وسماته، ثم نترجم لبعض شعراء هذا العصر، سائلين الله ﷻ الإخلاص والقبول، إنه على ما يشاء قدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الفصل الأول

القرآن الكريم وأثره في اللغة والأدب

الفصل الأول

القرآن الكريم وأثره في اللغة والأدب

القرآن الكريم :

هو كلام الله المنزل على رسوله محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته ، المتحدى بأقصر سورة منه .

وهو :" كتاب الله : فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا :﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾[1]، من قال به صدق، ومن عمل به أُجِر ، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم"[2].

---

(١) سورة الجن: الآيتان ١، ٢.

(٢) قال الإمام ابن كثير: هذا الحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين على رضى الله عنه وقد وهم بعضهم فى رفعه. راجع: المختار فى فضائل القرآن للإمام الحافظ بن كثير، تقديم وتعليق: السيد عبد المقصود عسكر (هدية الأزهر عدد رمضان ١٤١٢ هـ) ص ١٦، ١٧.

ويتميز القرآن عن سائر الكتب المنزلة بأنه اشتمل على المنهج والمعجزة معًا في حين أن الكتب السابقة قد اقتصر دورها على بيان المنهج فالتوراة كانت منهج موسى عليه السلام، ومعجزته كانت في اليد والعصا...، والإنجيل كان منهج عيسى عليه السلام ومعجزته كانت في إبراء الأكمه والأبرص ...، والقرآن كان منهج محمد ﷺ ومعجزته الكبرى هي القرآن الكريم، وذلك لأن المناهج التي أنزلت على الرسل السابقين أنزلت على نية تغييرها، فكانت معجزاتهم حسية من رآها آمن بها، ومن لم يرها فهو غير مقصود بها، إذ المقصود منها إنما هو تثبيت من آمنوا وإفحام من لم يؤمنوا ممن أرسل إليهم هذا الرسول [1]، على أننا نؤمن بكل ما جاء من هذه المعجزات في القرآن الكريم والسنة النبوية ، مؤكدين أنها ذكرت للعظة والاعتبار بأحوال من مضى ، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [2].

أما الإسلام فهو خاتم الأديان، وكتابه هو المهيمن على سائر الكتب فاقتضت حكمة الله أن تكون المعجزة عين المنهج لتبقى ببقائه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بحيث يستطيع أي واحد من أتباع محمد ﷺ أن يقول :إن محمدًا رسول الله، وهذه معجزته بين أيدينا، فيفحم خصمه، ويقيم عليه الحجة الدامغة [3].

---

(١) محمد رسول الله للشيخ / محمد متولي الشعراوي ص ١٢٣ ، ١٢٤ سلسلة كتاب اليوم العدد رقم (٣٠٠) ط ١٤١٠هـ -١٩٨٩م .

(٢) سورة يوسف: الآية ١١١.

(٣) انظر: محمد رسول الله للشيخ الشعراوى ص ١٢٤.

إعجاز القرآن الكريم

تحدى القرآن الكريم العرب – وهم أرباب الفصاحة والبيان – أن يأتوا بمثله فقال الله عزّ وجلّ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[1]، وقال مؤكدًا عجزهم : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[2]، فلما بان عجزهم، وقصر بيانهم وتوقفت عقولهم أمام عظمته وسحر بيانه تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله ، فقال الله عزّ وجلّ : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ ، فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾[3] . فلما عجزوا – وهم أرباب الفصاحة والبيان – كان غيرهم أشد عجزًا وأضعف حجة .

فما أن سمع أحد صناديد المشركين القرآن الكريم حتى أقر بعظمته وروعة بيانه، ولم يتمالك نفسه أو يستطيع أن يكفها عن الثناء عليه، فقال : إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه .

---

(١) سورة الطور: الآيات ٣٣، ٣٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٣) سورة البقرة : الآيات ٢٣، ٢٤.

وما أن سمعه كثير من العرب والأعراب ـ ممن شرح الله صدورهم للإسلام ـ حتى أسر قلوبهم واستولى على ألبابهم، فدانوا لبلاغته وعظمته، وأعلنوا على الفور إسلامهم وانضواءهم تحت راية هذا الدين العظيم .

من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم :

تعددت وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، ومن أهمها :

١-أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز الخلق عنه [١]، فمن من البشر يستطيع أن يقول : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [٢] ؟ ومن منهم يستطيع أن يقول : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [٣] ؟ ، ثم من منهم يستطيع أن يقول : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [٤] ؟ ، ثم تأمل قوله تعالى : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ

(١) إعجاز القرآن للباقلانى بهامش الإتقان للسيوطى ص٥٨ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٤٣.

(٣) سورة غافر: الآية ١٦.

(٤) سورة هود: الآية ٤٤.

مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [1] – تجد دواعي الغواية الثلاث قد قوبلت بدواعي العفاف الثلاث مقابلة صورت من القصص الممتع جدلاً عنيفًا بين جند الرحمن وجند الشيطان ، ووضعتهما أمام العقل المنصف في كفتي الميزان، وهكذا القرآن الكريم كله مزيج حلو سائغ يجمع الحق والجمال معًا، و يوجه العقول والعواطف إلى ما فيه هداية الإنسان و خير الإنسانية [2].

٢–أنه كان معلومًا من حال النبي ﷺ أنه كان أميًّا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ ، وكذلك كان معروفًا من حاله أنه لم يكن يعرِف شيئًا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم و سيرهم ثم أتى بجملة ما حدث ووقع من عظيمات الأمور ومهمات السير مذ خلق الله آدم عليه السلام إلى مبعثه ﷺ ، وإذا كان معروفًا أنه ﷺ لم يكن ملابسًا لأهل الآثار وحملة الأخبار، ولا مترددًا إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي [3].

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٣.

(٢) انظر : مناهل العرفان للزرقانى ٣١٤/٢.

(٣) إعجاز القرآن للباقلانى بهامش الإتقان للسيوطى ص ٦١، ٦٢.

٣-تضمنه الأمور الغيبية مما لا سبيل لبشر إلى معرفته أو الاطلاع عليه ، وقد صدقت نبوءاته كلها لم تتخلف واحدة منها، ومن ذلك إخباره عزّوجلّ بأن الروم المنهكة القوى- وقت نزول الآيات المبشرة بانتصارها- ستنتصر في غضون بضع سنوات على دولة الفرس المنتصرة الزاهية ، إذ يقول الله ﷻ :﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[١].

ونحو ذلك في القرآن كثير، فمنه الآيات التي نزلت في أكثر من موقف وموضع تكشف النفاق وتفضح المنافقين، ومنه قوله عزّوجلّ يتوَعّد المشركين : ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[٢]، مع أن المسلمين كانوا لا يزالون قلة مستضعفة ، وقال في أهل بدر: ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ ﴾[٣]، ووفى لهم بما وعد[٤]، وقد تحقق كل ما أخبر به القرآن الكريم على النحو الذي أخبر بما لا يدع مجالاً للشك في أنه تنزيل من حكيم حميد.

---

(١) سورة الروم: الآيات ٢- ٦.

(٢) سورة القمر: الآية ٤٥.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٧.

(٤) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٦١.

وهناك جوانب أخرى من الإعجاز منها الإعجاز العلمي ، والإعجاز الكوني ، وغير ذلك مما يطول المقام بسرده أو الحديث عنه فلنكتف بما ذكر وننتقل إلى أثر القرآن الكريم في اللغة والأدب.

أ –أثر القرآن الكريم في اللغة :

١– كان لنزول القرآن بلغة العرب أثر عظيم في توطيد دعائم هذه اللغة . وتوسيع نطاقها، وامتداد سلطانها، إذ جعلها لغة ذات دين سماوي، بل لغة أعظم الأديان وأبقاها إلى قيام الساعة ، فأضفى بذلك عليها شيئًا كبيرًا من التعظيم والقداسة ، فأخذ المسلمون ينظرون إليها على أنها جزء لا يتجزأ من دينهم ، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول : " تعلَموا العربية فإنها من دينكم " .

ويقول ابن تيمية : إن اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب ، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا باللغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

– وقد علل يوهان فك لقوة اللغة العربية بقوله : إن لغة القرآن قد صارت في شعور كل مسلم أيا كانت لغته الأصلية جزءًا لا ينفصل عن حقيقة الإسلام .

-ويقول بروكلمان : فبفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعًا مؤمنون بأن العربية وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت العربية من زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى.

وقد بلغ حب المسلمين للعربية لغة دينهم مبلغًا يعبر عنه البيروني الخوارزمي بقوله : ديننا واللغة العربية توءمان، والله لأن أُهجي بالعربية أحب إلي من أن أُمدح بالفارسية [1].

٢-أنه وحد لغة العرب ، إذ جمعهم على لهجة قريش ، وكان عثمان ﷺ يقول للقرشيين الثلاثة - عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن الحارث- الذين كلفهم بجمع القرآن مع زيد بن ثابت إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم ، ففعلوا [2].

ولولا ما فعله القرآن من جمع العرب على لغة قريش لاختلفت لغات الشعوب العربية اختلاف فروع اللاتينية أو الجرمانية وغيرهما من اللغات[3]، ولأدى ذلك إلى فرقة الأمة وانصرام حبلها، ولتعسر التفاهم بين أبنائها .

---

(١) راجع: حياة اللغة العربية فى ظل القرآن الكريم د/ رشاد محمد سالم (بحث بحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، العدد الثالث عشر سنة ١٤١٥هـ - ١٥٩٥م) ص ٤٣٨ وما بعدها.

(٢) مناهل العرفان للزرقانى ٢٥٩/١.

(٣) انظر: حياة اللغة العربية فى ظل القرآن الكريم د/ رشاد محمد سالم ص ٤٤٥.

يقول الرافعي : إنه لولا القرآن وأسراره البيانية ما اجتمع العرب على لغته ، ولو لم يجتمعوا لتبددت لغاتهم بالاختلاط الذي وقع ولم يكن منه بد ، حتى تنتقص الفطرة وتختبل الطباع ، ثم يكون مصير هذه اللغات إلى العفاء ، إذ لا يخلفهم عليها إلا من هو أشد منهم اختلاطًا وأكثر فسادًا ، وهكذا يتسلل الأمر حتى تسبقهم العربية فلا تبين وهي أفصح اللغات[1].

٣-اندثار بعض الألفاظ التي كانت شائعة في الجاهلية مثل قولهم عم صباحًا، عم مساء، فاندثرت هذه التحية، وحل محلها تحية الإسلام : " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته "، كما اندثرت بعض الألفاظ التي كانوا يستخدمونها عند تقسيم الغنائم كالمرباع، والصفايا، والنشيطة، والفضول، والتي جاءت في قول شاعرهم :

لك المرباع فينا والصفايا

وحكمك والنشيطة والفضول

وحل محلها ألفاظ الغنيمة ، والأنفال ، والفيء ، ونحو ذلك [2].

واندثرت أكثر الألفاظ التي كانت تسمى بها القداح التي يستخدمونها في الميسر، كالفذ، والتوءم، والضريب، والحلس ...إلخ [3]،

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ص ٩٦.

(٢) انظر: الأدب الإسلامى فى عصره الأول، د/ صلاح الدين محمد عبد التواب ص ١٧، ١٨.

(٣) راجع نهاية الأرب للنويرى ج٣ ص ١١٨، ١١٩.

فعندما حرم الإسلام الميسر بقوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [1]، لم تعد هذه الأسماء تطلق على تلك المسميات .

٤- توسيع مدلولات بعض الألفاظ وإطلاقها على معان لم تكن العرب تعرفها كالتيمم، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والإسلام، والقرآن، والسنة ... إلخ [2].

فالسنة في اللغة : الطريقة، والعادة، والسيرة مرضية كانت أو غير مرضية، فعرفت عند المحدثين بأنها : ما صدر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وعند الفقهاء : ما واظب عليه النبي ﷺ مع الترك أحيانًا [3].

والصلاة لغة : الدعاء ، ثم عرفت في لسان الشرع بأنها : أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة [4].

والصيام في اللغة : مطلق الإمساك ، ثم عرف في لسان الشرع بأنه إمساك مخصوص عن الأكل والشرب والجماع من أذان الفجر إلى أذان المغرب مع النية [5].

---

(١) سورة المائدة: الآية٩٠.

(٢) انظر: أثر القرآن الكريم والسنة النبوية فى اللغة العربية وآدابها أ.د/ محمد حسن عبد اللطيف بحث بحولية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ص ١٣٦، ١٣٧.

(٣) انظر : التعريفات للجرجانى ص ١٦١، ١٦٢ تحقيق إبراهيم الأبيارى ط دار الريان للتراث.

(٤) الفقه على المذاهب الأربعة: قسم العبادات ص ١٥١ ط وزارة الأوقاف المصرية سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٥) التعريفات للجرجاني ص ١٧٨.

٥- إطلاق القرآن الكريم كثيرًا من الأوصاف على أمور غيبية فجرى ذلك مجرى الأسماء، كالواقعة، والحاقة، والقارعة، والصاخة، والطامة، والغاشية، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرًا ﴾ [١]، فصارت أسماء الفاعلين هنا أعلامًا على طوائف أو جماعات من الملائكة تقوم بهذه الأفعال [٢].

٦- تهذيب اللغة والسير بها نحو السهولة والمتانة ، ووضوح القصد ، وبلوغ الغرض من أوضح الطرق وأجود الأساليب [٣].

٧ – من يتتبع نشأة العلوم اللغوية يجد أنها لم تنل هذه العناية ولم تحظ بما حظيت به من جهد وعرق إلا حفاظًا على القرآن الكريم ، وعلى لغته من أن يتسرب إليها أو إلى أهلها اللحن .

ب- أثر القرآن الكريم في الأدب :

لقد بلغ القرآن الكريم في تأثيره وأخذه بالألباب مبلغًا خرق به العادة في كل ما عرف من كتب الله والناس [٤]، وإذا كان العامة قد

---

(١) سورة النازعات: الآيات ١-٥ .

(٢) انظر : أثرالقرآن الكريم والسنة النبوية في اللغة العربية وآدابها أ . د / محمد حسن عبد اللطيف ص ١٣٦.

(٣) انظر : حياة اللغة العربية في ظل القرآن الكريم د / رشاد محمد سالم ص ٤٥٥ .

(٤) انظر : مناهل العرفان للزرقاني ج ٢ ص ٤٠٥ .

استشعروا عظمته وروعة بيانه فإن الخاصة كانوا أشد تأثرًا به، وأكثر معرفة لهذه العظمة وتلك الروعة، وقد روى أن الأصمعي سمع كلام جارية فأعجب بفصاحتها، فقال لها : قاتلك الله، ما أفصحك !، فقالت : أو بعد كلام الله من فصاحة ؟! لقد جمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبريين وبشارتين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[1].

وتتجلى مظاهر تأثير القرآن الكريم في الأدب من وجوه أهمها :

١-أنه وجه الشعر والشعراء وجهة إسلامية – دينية وخلقية – فعندما نزل قوله تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[2]، حرص شعراء المسلمين على أن يكونوا في عداد الطائفة المستثناه، فسخّروا شعرهم للدفاع عن الدعوة الإسلامية، والحث على نصرتها، والالتزام بما جاء به هذا الدين من قيم ومبادئ، والبعد عن كل ما يتنافى مع منطق هذا الدين وتعاليمه، فانصرفوا عن الأغراض التي

(١) سورة القصص : الآية ٧.

(٢) سورة الشعراء : الآيات ٢٢٤-٢٢٧.

لم يقرها الإسلام كوصف الخمر والحث على احتسائها، والغزل الفاحش الذي يهتك العورات ويخدش الحياء، والمديح الزائف، والفخر الكاذب، ونحو ذلك .

٢-أن الخطباء والشعراء والكتاب أخذوا بنصه، وراقهم بيانه، فهرعوا إليه يقتبسون منه، ويستأنسون به، ويستمدون منه ما يضفي على أساليبهم الجمال والروعة البيانية .

ومن يطالع خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه يجد تأثرهم بالقرآن الكريم واقتباسهم منه واضحًا جليًّا، ومن ذلك :

١-قول النبي ﷺ في خطبة له : " ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة ألا وإن الشر كله بحذافيره في النار، واعملوا وأنتم من الله على حذر، واعلموا أنكم معرضون على أعمالكم، وأنكم ملاقو الله ربكم لابد : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (١).

٢-ما روي من أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه خطب يوم موت النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، وقال : ألا من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا قوله تعالى :﴿ إِنَّكَ

(١) سورة الزلزلة : الآيتان ٧-٨ . والخطبة في سنن البيهقي .

مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [1]، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [2].

٣- قول عثمان بن عفان ﷺ في خطبة له : " اتقوا الله فإن تقواه جنه من بأسه ، ووسيلة عنده ، واحذروا من الله الغير [3]، والزموا جماعتكم لا تصيروا أحزابًا " ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [4].

وإذا كان الخطباء قد تأثروا بالقرآن الكريم وأكثروا الاقتباس منه فإن الشعراء ــ أيضًا ــ قد تأثروا به في معانيهم، وفي ألفاظهم وأساليبهم، ومن ذلك قول حسان بن ثابت يمدح النبي ﷺ [5]:

---

(١) سورة الزمر : الآية ٣٠ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٤٤ . والخطبة في صحيح البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ، " باب لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا " حديث رقم ٣٦٦٨ .

(٣) الغير : الأحداث والنوائب .

(٤) سورة آل عمران: الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤. والخطبة فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٤٢٢، ٤٢٣.

(٥) ديوان حسان ص ٥٥ ، ط دار صادر – بيروت .

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى

حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

متأثرًا بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

ومنه قول النابغة الجعدي[2]:

باتت تذكرني بالله قاعدة

والدمع ينهل من شأنيهما غربًا

يابنة عمي كتاب الله أخرجني

كرهًا وهل أمنعن الله ما فعلا

فإن رجعت فرب الناس يرجعني

وإن لحقت بربي فابتغي بدلا

ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرني

أو ضارعًا من ضنى لم يستطع حولاً

(١) سورة التوبة : الآية ١٢٨.

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٨٣ تقديم الشيخ حسن تميم .

متأثرًا في بيته الأخير بقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (١)، ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ (٢).

٣- إن ما أحثه القرآن الكريم من نهضة لغوية كان ـ بالطبع ـ ذا أثر واضح في نظمهم ونثرهم، فقد وسع القرآن الكريم دائرة معجمهم اللغوي، ووضع بين أيديهم ثروة هائلة من المفردات والأساليب لم تتوفر لغيرهم من أصحاب اللغات الأخرى، إذ لا نجد أمة من الأمم حفظت في صدورها من اللغة مقدار ما حفظه المسلمون من كتاب ربهم وسنة نبيهم (٣).

٤- كان للنهضة العلمية التي أحدثها القرآن الكريم، والعلوم التي دارت حوله ونشأت خدمة له - أثر واضح في ميدان الدراسات الأدبية والنقدية (٤).

---

(١) سورة الفتح : الآية ١٧.

(٢) سورة التوبة : الآية ٩١ .

(٣) انظر : حياة اللغة العربية في ظل القرآن الكريم د / رشاد محمد سالم ص ٤٨٦.

(٤) راجع على سبيل المثال : الصناعتين لأبي هلال العسكري ، إعجاز القرآن للباقلاني ، دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي.

الفصل الثاني

الحديث النبوي وأثره في اللغة والأدب

الفصل الثاني

الحديث النبوي وأثره في اللغة والأدب

البلاغة النبوية

كان النبي ﷺ أفصح العرب كافة ، يقول له الإمام علي ﷺ: يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نعرفه فمن علمك؟ فيقول ﷺ: أدبني ربي فأحسن تأديبي ، وقال له الصديق ﷺ: لقد طفت في العرب ، وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك ؟ فأجابه ﷺ بمثل ما أجاب به الإمام عليًا .

فألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي فإنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي دليله [1]، فقد كان ﷺ كما قال عنه ربه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [2]، وكما قال هو عن نفسه : " أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر " [3].

فقد نشأ ﷺ وتقلب في أفصح القبائل وأخلصها منطقًا، وأعذبها بيانًا، فكان مولده في بني هاشم، وأخواله من بني زهرة، ورضاعه في بني

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص ٣٦٤ .

(٢) سورة النجم : الآيتان ٣، ٤.

(٣) راجع إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص ٣٧٢ .

سعد، ونشأته في قريش، ومتزوجه في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو – الأوس والخزرج – لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة ، ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة [1].

وقد وصف الجاحظ كلام النبي ﷺ فقال : هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف، استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق . وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته، وقلة عدد المسامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج [2]. إلا بالحق، ولا يستعين

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص ٣٧٢ ويقوم بالعرب جملة ، أي : يساوي جميع العرب فصاحة وبلاغة .

(٢) الفلج : الظفر والنصر.

بالخلابة [1] ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر [2]، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا ، ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى من كلامه ﷺ[3].

وإليك أنموذجين من حديثه ﷺ:

الأنموذج الأول :

قوله ﷺ: " من كانت له أنثى فلم يئدها، ولم يهنها، ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة "[4].

فهذا الحديث يعالج خللاً اجتماعيًا ونفسيًا ما زال بعض الناس يعانون منه حتى في عصرنا الحديث، فقد كان أهل الجاهلية إذا بشر أحدهم بالأنثى اسود وجهه، واستبد به الغضب، وعلته الكآبة، بل إن بعضهم كان يتسرع فيدفنها حية لا ذنب لها إلا أنها أنثى .

ونحن ــ في أيامنا هذه ــ نجد حال بعض الناس أشبه بحال أهل الجاهلية ، فإذا بشر أحدهم بالأنثى اسود وجهه، وانتفخت أوداجه ، فتجده حزينًا مهمومًا غافلاً عن قوله تعالى : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن

(١) الخلابة : الخديعة برقيق الحديث.

(٢) يقال : حصر في كلامه ، أي : أصابه العي ، ولم يقدر على الكلام.

(٣) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٦– ١٨.

(٤) الحديث أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب ، باب فضل من عال يتيما ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾[1].

من وجوه البلاغة في هذا الحديث :

١-عبر النبي ﷺ بلفظ الأنثى في قوله : " من كانت له أنثى " ولم يقل : من كانت له بنت ، ليشمل بذلك البنت، والأخت، وبنات الابن أو البنت، وبنات الأخ، وبنات الأخت، وكل أنثى تربطه بها صلة، وفي ذلك حث على المروءة والترابط وصلة الرحم، كما أن لفظ الأنوثة يشعر بالرقة والضعف، ويتطلب الشفقة والرحمة .

٢- في قوله ﷺ: " فلم يئدها، ولم يهنها و ولم يؤثر ولده عليها " تظهر البلاغة النبوية من عدة وجوه ، أهمها :

أ-استقصاء المعنى، فالأذى الذي يتوجه إلى الأنثى لا يخرج عما ذكره النبي ﷺ.

ب-التدرج العقلي والمنطقي حيث بدأ النبي ﷺ بمسألة الوأد - دفنهن أحياء - وهي أقوى وأشد ألوان الأذى الذي قد يوجه إلى الأنثى، ثم مسألة الإهانة التي قد تكون بالضرب أو السباب ونحو ذلك،

(١) سورة الشورى : الآيتان ٤٩ ،٥٠.

وتأتي قضية تفضيل الولد عليها في المرتبة الأخيرة، إذ إنها أقل المراتب الثلاث في الأذى، لكنه ﷺ قد نص عليها لوقوع كثير من الناس فيها .

ج-حسن الإيقاع والتناسق بين الجمل وهذا هو النمط العالي الذي يهجم عليك الحسن منه دفعة واحدة فلا تدري أجاءك من جهة اللفظ أم من جهة المعنى .

٣- قال ﷺ: " أدخله الله الجنة " ، ولم يقل دخل الجنة، لأن ذكر الفاعل هنا يفيد التعظيم، وما دام الفاعل عظيمًا فإن الفعل سيكون كذلك، وفي ذلك حث وترغيب في حسن معاملة الإناث .

الأنموذج الثاني :

قوله ﷺ: " رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر هداي إلي، وانصرني على من بغى علي، اللهم اجعلني لك شاكرًا، لك ذاكرًا، لك راهبًا لك مطواعًا، إليك مخبتًا، أو منيبًا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي "[1].

وفي هذا الحديث تتدفق البلاغة النبوية من الوجوه الآتية :

١-في قوله ﷺ: " رب أعني ولا تعن علي ، وانصرني ولا تنصر علي ، وامكر لي ولا تمكر علي " استخدم ﷺ طباق السلب، فلما قال : " واهدني " كان من المنتظر أن يسير على النسق نفسه مستخدمًا هذا اللون من

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه : كتاب الصلاة . باب ما يقول الرجل إذا سلم.

الطباق، وإذا ما حاول المتلقي إعمال ذهنه في استحضار ما يمكن أن يتمم به العبارة ربما أعياه ذلك فلم يوفق إلى ما تتم به الفائدة إلا بعد جهد وعناء ، وقد لا يتأتى له ذلك ، ولكن النبي ﷺ يقطع هذا الجهد والعناء في يسر وسهولة ، فيصرف الكلام من حيز النفي إلى حيز الإثبات " ويسر هداي إلي " ، وذلك لأن الهدى مما يحتاج إلى إثبات بعد إثبات، فمن البلاغة أن يثبت ولا ينفي، وهذا ما فعله النبي ﷺ، وهو ما يدل على فقه المعاني وروعة النظم .

٢- استخدم النبي ﷺ أسلوب القصر خمس مرات، وذلك في قوله ﷺ: " لك شاكرًا ، لك ذاكرًا ، لك راهبًا لك مطواعًا ، إليك مخبتًا أو منيبًا "، فقد أعطى استخدام هذا الأسلوب المعنى قوة وتأكيدًا، كما أعطى اللفظ لونًا من الإيقاع المؤثر .

وقد زاد استعمال اسم الفاعل من الثلاثي في الجمل الثلاث الأول هذا التناسق جمالا واتساقًا .

وفي تقديم قوله ﷺ: " لك شاكرًا " على بقية الجمل تنبيه على أهمية الشكر، لأن بعض الناس قد يصبرون عند البلاء لكنهم ينسون الشكر

عند النعماء، مع أن الشكر لا يأتي إلا بالمزيد من النعم، ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [1].

٣-في قوله ﷺ: " رب أعني "، وقوله : " رب تقبل " حذفت أداة النداء دون تعويض، لأن دعاء العبد خالقه لا يحتاج إلى واسطة أو مقدمات، وتتوافق السنة في ذلك مع القرآن الكريم ، فحين تحدث القرآن عن المحيض قال سبحانه : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [2]، وعندما تحدث عن اليتامى قال سبحانه : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [3]، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ [4]، أما في باب الدعاء فقال عز وجل : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [5] وولم يقل : إني قريب، لأن دعاء العبد خالقه لا يحتاج إلى شيء غير أن يوجه العبد وجهه إلى خالقه الذي لا يخيب رجاء من يدعوه.

٤- في قوله ﷺ: " تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي "- نلحظ ملمحًا بلاغيًا يسميه البلاغيون مراعاة النظير، وهو الجمع بين الشيء وما

(١) سورة إبراهيم : الآية ٧ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٢٢
(٣) سورة البقرة : الآية ٢٢٠ .
(٤) سورة طه : الآية ١٠٥.
(٥) سورة البقرة : الآية ١٨٦.

يناسبه[1]، فالتوبة يناسبها القبول، والحوبة يناسبها الغسل، والدعوة يناسبها الإجابة، والحجة يناسبها التثبيت، والقلب يناسبه الهداية، والقول يناسبه السداد، والسخيمة يناسبها السل، فحسن استخدام هذا اللون يؤكد ويدل دلالة واضحة على إدراك المتحدث لفقه المعاني وبراعته في صياغتها، ووضعه كل لفظة في موضعها بعيدة كل البعد عن النبو أو القلق .

٥- عبر ﷺ بصيغة المبالغة في قوله : " مطواعًا " مع أنه عبر في بقية الجمل باسم الفاعل تأكيدًا على أهمية الطاعة، وازداد الأمر وضوحًا وتأكيدًا باستخدام أسلوب القصر في العبارة نفسها، حيث قصر الطاعة على رب العالمين، تنبيهًا على أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

من جوامع كلمه ﷺ:

لقد أفرد أبو منصور الثعالبي في كتابه الإعجاز والإيجاز بابًا لجوامع كلم المصطفى ﷺ[2]، ومما ذكره في هذا الباب : قولهﷺ: " لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين " وقوله ﷺ: " إن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى "، وقوله ﷺ : " الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة "، وقوله :

---

(١) ويمثلون لهذا اللون بقولهم : أنت إسماعيل الوعد ، شعيبي التوفيق ، يوسفي العفو ، محمدي الخلق ، انظر : بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي ج ٤ ص ١٦ – ١٧.

(٢) راجع : الإعجاز والإيجاز لأبي منصور الثعالبي ص ١٧ وما بعدها .

" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا "، وقوله ﷺ : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " ، وقوله ﷺ: " وعد المؤمن كأخذ باليد " .

والواقع أن أحاديث النبي ﷺ يتدفق الحسن فيها من جهتي اللفظ والمعنى، فلا يكاد اللفظ يصل إلى الأسماع حتى تكون المعاني قد وصلت إلى القلوب .

أثر الحديث في اللغة والأدب

كما كان للقرآن الكريم أثره الواضح في اللغة والأدب فإن كلام النبي ﷺ كانت له المرتبة الثانية في ذلك ، ومن أهم آثاره فيها :

١-أضاف الحديث النبوي إلى اللغة ألفاظًا جديدة كتسميته صفرًا الأول محرمًا .

قال ابن دريد : الصفران شهران في السنة سمي أحدهما في الإسلام المحرم، وكانت العرب تارة تحرمه، وتارة تقاتل فيه وتحرم صفرًا الآخر، فلما جاء الإسلام وأبطل ما كانوا يفعلون من النسيء سماه النبي ﷺ شهر الله المحرم، وكإطلاقه ﷺ لفظ الزمارة على الزانية . قال ثعلب : سميت بهذا الاسم لأنها تشيع أمرها كأنها تنفخ في بوق ، كما روى أنه ﷺ قال لأبي تميمة الهجيمي : " إياك والمخيلة " فقال : يا رسول الله، نحن قوم عرب فما المخيلة ؟ فقال ﷺ: " سبل الإزار "، ومرت الكلمة بعد ذلك على هذا الوضع يراد بها الكبر ونحوه ، وفي استفهام أبي تميمة وقوله :

نحن قوم عرب دلالة على أن النبي ﷺ اخترع هذا اللفظ لهذا المعنى ولم يسبق إليه[1].

٢- وسع الحديث النبوي مدلولات بعض الألفاظ كإطلاقه صلى الله عليه وسلم لفظ المفلس - وهو من لا درهم له ولا متاع - على من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وقد شتم هذا ، وأكل مال هذا ، وقذف هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فطرحت عليه.

٣- ساعد الحديث الشريف على تهذيب الألسنة والطباع، ونبه على الاستعمال الصحيح لبعض الألفاظ كقوله ﷺ: " لا يقولن أحدكم خبثت نفسي، وليقل : لقست [2]نفسي[3] " وإنما كره " خبثت " هربًا من لفظ الخبث والخبيث.

ومنه قوله ﷺ : " لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي ، ولا يقولن المملوك ربي وربتي ، وليقل المالك فتاي وفتاتي، وليقل المملوك سيدي وسيدتي، فإنكم المملوكون والرب الله عز وجل "[4].

---

(١) راجع : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص ٤١١ ، وأثر القرآن الكريم والسنة النبوية في اللغة العربية وآدابها أ . د / محمد حسن عبد اللطيف ص ١٦١ .

(٢) لقست : غثت ، ويقال : لقست نفسه إذا نزعته إلى الشيء وحرصت عليه .. اللسان : مادة " لقس ".

(٣) الحديث أخرجه أبو داود في سننه : كتاب الأدب ، باب لا يقال خبثت نفسي .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود في سننه : كتاب الأدب ، باب لا يقل المملوك : ربي وربتي.

٤- أضاف الحديث بعض التراكيب البيانية التي لم يعرفها العرب من قبل ، يقول الإمام علي ﷺ: ما سمعت كلمة غريبة من العرب - يريد التركيب البياني - إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ وسمعته يقول : " مات حتف أنفه "، وما سمعتها من عربي قبله .

ومنه قوله ﷺ: " الآن حمى الوطيس "، " بعثت في نفس الساعة " رفقًا بالقوارير "، " هدنة على دخن "، " كل أرض بسمائها "، وقوله في يوم بدر : " هذا يوم له ما بعده " إلى أمثال لذلك كثيرة ، وهذا ضرب عزيز من الكلام يحتذيه البلغاء، ويطبعون على قالبه، كلما كثر في اللغة لانت أعطافه، واستبصرت طرق الصنعة إليه، وما من بليغ أحدث في العربية منه ما أحدثه النبي ﷺ[١].

٥- ساعد الحديث النبوي على تهذيب اللغة وتخليصها من الغريب والحوشي، والتعقيد والمعاظلة، وأحل محل ذلك السلاسة والسهولة، والرونق والوضوح، وسلامة الأسلوب والبيان[٢].

٦- قضى على سجع الكهان فارتفعت منزلة النثر بتخليصه من مظاهر التكلف والاعتساف ، وليس أدل على ذلك من إنكاره ﷺ قول من

---

(١) راجع : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص ٤١٠ ، ٤٢٥، والبيان والتبيين للجاحظ ج٢ ص ١٥ وما بعدها .

(٢) انظر : الأدب الإسلامي في عصره الأول أ . د / صلاح الدين محمد عبد التواب ص ٢٨.

سأله عن دية الجنين : أندى ما لا شرب ولا أكل، ولا صاح ولا استهل، ومثل ذلك يطل؟[1]، فقال ﷺ: أسجعًا كسجع الكهان ؟! [2].

٧- أصبحت أغراض الأدب تحتذي البلاغة النبوية فلا يقول الأديب ولا ينظم الشاعر إلا في الدعوة إلى الخير والحق ، وفي تأييد العقيدة الإسلامية، وهجروا كل مظاهر المديح الكاذب، والفخر المبالغ فيه، والغزل الفاحش، والدعوة الجاهلية إلى الانتقام والأخذ بالثأر وإثارة العصبيات [3].

٨- كان للعناية التي نالها الحديث النبوي في كتابته وتدوينه، وشرحه وتفسير غريبه ، وتراجم رجاله وطبقاتهم، ونحو ذلك - أثر واضح في الأدب والنقد، كما أن حفظ أحاديث النبي ﷺ قد ساعد على صقل الذوق الأدبي، وعلى بقاء اللغة محفوظة في صدور أبنائها .

---

(١) يطل : يهدر فلا يثأر به ولا تؤخذ ديته ..

(٢) المرجع السابق ص ٢٩ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٣١.

الفصل الثالث

الخطابة فى عصر صدر الإسلام

الفصل الثالث

الخطابة فى عصر صدر الإسلام

عوامل ازدهارها:

لقد نهضت الخطابة فى صدر الإسلام نهضة عظيمة، فعلا شأنها، وارتفع قدرها، وتبوأت مكانا عليا بين فنون القول وألوان البيان، ويرجع ذلك لأسباب، أهمها:

١- تأثر الخطباء بروعة وبهاء الأسلوب القرآني، وكثر استمدادهم منه، واستشهادهم أو استئناسهم به، إذ كانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل، وفى الكلام يوم الجمع شيء من القرآن، يقول عمران بن حطان[1]: خطبت عند زياد خطبة ظننت أني لم أقصر فيها عن غاية، ولم أدع لطاعن علة، فمررت ببعض المجالس فسمعت شيخا يقول : هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شيء من القرآن[2].

٢- أن الإسلام فتح أمام الخطابة مجالات عديدة، فارتفعت رايتها فى الجمع والأعياد، وفى مجالس الصلح والنكاح ، وفى الحض على الجهاد فى سبيل الله، ونحو ذلك.

---

(١) هو أبو شهاب عمران بن حطان بن ظبيان من بني سدوس بن شيبان من بكر بن وائل، كان فى أول أمره من أهل السنة والجماعة. فلما تقدمت به السن انتقل إلى مذهب الخوارج فكان من أبرز خطبائهم وشعرائهم، انظر : تاريخ الأدب العربى لعمر فروخ، ٤٩٩/١، والعصر الإسلامي د/ شوقي ضيف: ٣٠٧.

(٢) البيان والتبيين: ٦/٢.

٣- لم يقف تقدير الإسلام للخطابة عند توسيع نطاقها، إنما أضفى عليها شيئا من القداسة، وجعلها داخلة فى كثير من العبادات، وندب الناس إلى سماعها والإنصات إليها، فقال ﷺ: " لا يغتسل رجل يوم الجمعة، ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدهن من دهنه[١]، أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام، إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى [٢]".

وقد حذر النبي ﷺ تحذيرا شديدا من الكلام فى أثناء خطبة الجمعة ولو كان طلبا للإنصات، فقال ﷺ: "إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة – والإمام يخطب – أنصت فقد لغوت"[٣].

قال ابن حجر: ويدل على وجوب الإنصات حديث علي ﷺ: "من دنا من الإمام فلغا ولم يستمع ولم ينصت كان عليه كفل من الوزر، ومن قال صه فقد لغا، ومن لغا فلا جمعة له، ثم قال: هكذا سمعت نبيكم ﷺ[٤]، لأن الوزر لا يترتب على من فعل مباحا ولو كان مكروها كراهة تنزيه[٥].

٤- أن اتساع الفتوحات والأمصار الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين وسع آفاق الخطابة وبسط سلطانها أكثر من ذي قبل، كما أن الفتن التي أثيرت فى أواخر أيام عثمان ﷺ ، ثم نمت واشتعلت أيام علي ومعاوية، وأدت

(١) قوله: "يدهن" المرد به إزالة شعث الشعر به، وفيه إشارة إلى التزين يوم الجمعة.

(٢) أخرجه البخاري فى صحيحه: كتاب الجمعة، باب الدهن للجمعة.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه: باب الإنصات يوم الجمعة والإمام يخطب.

(٤)أخرجه أحمد وأبو داود، ورواية ابن حجر فى الفتح" ومن دنا فلم ينصت كان عليه كفلان من الوزر"، وانظر: نيل الأوطار للشوكاني: ٢٧١/٣، باب المنع من الكلام والإمام يخطب.

(٥) فتح الباري لابن حجر: ٤١٥/٢.

إلى انقسام المسلمين إلى علويين، وأمويين، وخوارج، ومرجئة – كانت ذات أثر واضح فى نهضة الخطابة وكثرة الخطباء.

٥- أن العرب كانوا لا يزالون على فطرتهم البيانية وسليقتهم العربية السليمة التي لم يتسرب إليها لحن ولا عجمة، إذ كان احتكاكهم بغيرهم من الأمم ما يزال فى بواكيره، ولم يصل إلى الدرجة التي يخشى معها اللحن، إضافة إلى أنهم كانوا يعتزون بلغتهم التي هي جزء لا يتجزأ من دينهم وكيانهم.

أغراض الخطابة فى هذا العصر[1]:

١- الحث على توحيد الله ﷻ، وبناء العقيدة الصحيحة من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره حلوه ومره، والإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار .

٢- العمل على إرساء مبادئ وقواعد الإسلام من العبادات والمعاملات والقيم والأخلاق.

٣- الحث على الجهاد فى سبيل الله، والتضحية فى سبيل نصرة هذا الدين، والتحذير من التخاذل والركون إلى الدنيا وملذاتها.

---

(١) راجع فى ذلك: الأدب الإسلامي فى عصره الأول د/صلاح الدين عبد التواب: ص٣٤، ودراسات فى الأدب العربي أ.د/ طاهر عبد اللطيف عوض : ص ١٣٠. وشذرات من الأدب فى عصر صدر الإسلام، أ.د/ محمد حسن عبد اللطيف: ٥٩.

٤- العمل على إرساء نظام الحكم وتثبيت قواعده من نحو قضايا الشورى، والبيعة، والخلافة، والقضاء، ونحو ذلك.

٥- الحث على سمو العلاقات الاجتماعية، وإقامتها على أساس ديني وذلك فى شئون الصلح، والنكاح، وحق الجوار، وصلة الأرحام، وإصلاح ذات البين، وما شابه ذلك.

خطبة النبي ﷺ فى حجة الوداع:

خطب النبي ﷺ الناس فى حجة الوداع، فقال: الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد:

أيها الناس: اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيها الناس:

إن دماء كم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلَّغتُ؟ اللَّهم اشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى الذى ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمِّي العباس بن عبد المطلب، وإنَّ مآثر الجاهلية موضوعة

غير السدانة[1] والسقاية، والعمد والقود[2]، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس:

إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم،فاحذروه على دينكم.

أيها الناس:

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾[3]، يحرموا ما أحل الله وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾[4]، ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

---

(١) السدانة: خدمة الكعبة.

(٢) العمد: القتل المتعمد والقود: القصاص، قتل القاتل بالقتيل.

(٣) سورة التوبة : الآية ٣٧.

(٤) سورة التوبة : الآية ٣٦.

أيها الناس:

إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن[1] وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان[2] لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس:

إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فلا ترجعن بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى، كتاب الله وسنتي، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس:

إن ر بكم واحد، وإن أباكم واحد، كلُّكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير، وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

---

(١) تعضلوهن: تضيقوا عليهن.

(٢) عوان: جمع عانية، وهى الأسيرة، أي: هن عندكم بمنزلة الأسرى.

أيها الناس:

إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا يجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل[1]، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[2].

وقفة مع هذه الخطبة الجامعة:

لقد وقف النبي ﷺ هذا الموقف العظيم ليعلن فى هذه الخطبة الجامعة – التي هي أشبه ما يكون بوصايا مودع – عن طائفة من التشريعات الإسلامية العظيمة والتي كان من أهمها:

ا- حرمة الدماء والأموال:

لم يكد النبي ﷺ يلم بالحمد والشهادة والوصية بالتقوى حتى أعلن عن حرمة الدماء والأموال، فدماء المسلمين وأموالهم حرام كحرمة يوم عرفة فى هذا الشهر الحرام – شهر ذي الحجة – فى هذا البلد الحرام (مكة المكرمة).

ولم يكتف ﷺ بهذا التأكيد فعاد فى آخر خطبته ليؤكد هذا الأمر مرة أخرى، إذ يقول : "ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، " فلا ترجعن بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض".

---

(١) لا يقبل منه صرف ولا عدل: أى لا يقبل منه شيء، وأصل العدل أن يقتل الرجل بالرجل، والصرف أن ينصرف الدم إلى أخذ الدية.

(٢) الخطبة فى البيان والتبيين ٢/ ٣١، وتاريخ الطبرى ٣/١٥٠، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٤٧.

وقد أسقط النبى ﷺ ربا الجاهلية، وبدأ بأقرب الموسرين إليه العباس بن عبد المطلب ، "وأول ربا أضع ربا عمى العباس بن عبد المطلب" ، وأسقط دماء الجاهلية وبدا بأقرب الدماء إليه، " اول دم أضع دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب".

وبذلك ندرك البون الشاسع بين المنهاج النبوي الذي يبدأ فيه الرسول ﷺ بنفسه وأقرب الناس إليه – حيث يقول ﷺ : " والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها" – وبين كثير ممن تتملكهم المحاباة والمجاملة فإذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، إنه الفارق العظيم بين عدالة السماء وطغيان البشر.

٢- التحذير من التلاعب بالأشهر الحرام:

فقد كان العرب إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرًا آخر، فيستحلون المحرم ويحرمون صفرًا، فإن احتاجوا – أيضا- أحلوه وحرموا ربيعًا الأول، وهكذا كانوا يعملون حتى استدار التحريم على السنة كلها[1].

وقيل: إن المشركين كانوا يحسبون السنة اثنى عشر شهرًا وخمسة عشر يوما، فكان الحج فى رمضان، وفى شوال، وفى ذي القعدة، وفى كل شهر من السنة، وذلك بحكم استدارة الشهر بسبب زيادة الخمسة عشر يوما.

وكان حج أبي بكر فى السنة التاسعة من الهجرة واقعا فى شهر ذي القعدة بسبب ذلك، فلما حج النبي ﷺ وافق حجه ذا الحجة فى العشر الأول منه، فأعلن ﷺ نسخ الحساب الذي كانوا يحسبون به الزمن، وأكد أن السنة

(١) روح المعانى للألوسى جـ ١٠ ص ٩٣.

إنما هي اثنا عشر شهرا فقط. فلا تداخل بعد اليوم: يوم عرفة الذي حج فيه رسول الله ﷺ[1].

قال القرطبي : " وهذا القول أشبه بقول النبي ﷺ: "إن الزمان قد استدار.." أي: إن زمان الحج قد عاد إلى وقته الأصلى الذي عينه الله يوم خلق السماوات والأرض[2].

٣- الوصايا بالنساء:

أوصى رسول الله ﷺ بالنساء خيرا، وأكد فى كلمة موجزة جامعة القضاء على الظلم الذي كان يقع على المرأة فى الجاهلية، وحفظ لها حقوقها وكرامتها الإنسانية التي تضمنتها أحكام الشريعة الإسلامية.

ولقد كانت هذه الحقيقة جديرة بتأكيد الوصية بها بسبب من كانوا حديثي عهد بالإسلام قريبي عهد بتقاليدهم الجاهلية التي تقضي بإهمال شئون المرأة وعدم الاعتراف لها بأي حق[3]، فوضع النبي ﷺ - لهم وللناس جميعًا إلى أن تقوم الساعة - ما للمرأة من حقوق، وما عليها من الواجبات.

٤- تقرير مبدأ الأخوة والمساواة:

أكد النبي ﷺ أن الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي و لا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر

---

(١) انظر: تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٣٧، ١٣٨، وفقه السيرة لمحمد سعيد البوطى ص ٣٤٣ ط دار الفكر عام ١٩٧٨م.

(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٣٨.

(٣) فقه السيرة للبوطى ص ٣٤٤.

إلا بالتقوى، فلا فضل للون أو جنس، ولا مزية لوطن أو لغة، إنما هو مقياس واحد تتحدد به القيم، ويعرف به فضل الناس جميعا وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (١).

كما أكدت الخطبة على ضرورة الالتزام بمنهج الله وإعطاء كل وارث حقه وأنه لا وصية لوارث، وأن الوصية لا تجوز فيما زاد على الثلث، وأن الولد للفراش وللعاهر الحجر .... إلخ .

وهذه الخطبة صورت فى دقة بالغة حس منطق الرسول ﷺ فى خطابته، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع متكلف ولا بلفظ غريب، فقد كان يكره اللونين جميعا من الكلام، لما يدلان عليه من التكلف، وقد برأه الله تعالى منه، إذ يقول فى كتابه العزيزعلى لسانه ﷺ: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (٢).

الأغراض التي قضت عليها الخطابة الإسلامية:(٣)

قضت الخطابة الإسلامية على كل الأغراض التي تخالف الدين وتعاليمة ومنها :

١- الخطابة التي تدور حول المفاخرات والتباهي بالأحساب والأنساب، إذ يقول النبي ﷺ: " إن الله قد أذهب عنكم عُبّية (٤) الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) ص: ٨٦، وانظر العصر الإسلامى د/ شوقى ضيف ص ١٢٠.

(٣) انظر : دراسات فى الأدب العربى أ.د/ طاهر عبد اللطيف عوض ص ١٣٣.

(٤) العبية (بضم العين وتشديد الموحدة فالمثناة) الكبر والفخر، وعبية الجاهلية نخوتها.

فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان [1] التي تدفع بأنفها النتن" [2].

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: "وَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَتِ الأَعَاجِمُ بِالأَعْمَالِ وَجِئْنَا بِغَيْرِ عَمَلٍ فَهُمْ أَوْلَى بِمُحَمَّدٍ مِنَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[3].

٢- الخطابة التي تدعو إلى الأخذ بالثأر وإشعال نار الفتنة وما يتبع ذلك من العداوة والبغضاء.

٣- الخطابة التي تدعو إلى الموبقات، وتقوم على إشاعة الفحشاء، إذ يقول ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [4].

خصائص الخطابة الإسلامية:

اتسمت الخطابة الإسلامية فى عصر صدر الإسلام بمجموعة من الخصائص

والسمات، أهمها:

١- بدؤها بالحمد والثناء والصلاة على رسول الله ﷺ، وكان خطباء السلف الصالح وأهل البيان من التابعين يسمون الخطبة التي لم تبدأ

---

(١) الجعلان: جمع جعل (بضم ففتح)، وهو دابة سوداء كالخنفساء.

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه: كتاب الأدب، باب التفاخر بالأحساب.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٣٩٦.

(٤) سورة النور: الآية ١٩.

بالتحميد وتستفتح بالتمجيد البتراء، ويسمون التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي الشوهاء[1].

كثرة الاقتباس من القرآن الكريم وحديث النبي ﷺعلى نحو ما نرى من قول الصديق ﷺ فى خطبة له: "وقدموا لأنفسكم خيرا تجدوه محضرا، فإن الله ﷻ يقول : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (٢).

ومنه قول عمر بن الخطاب ﷺ فى خطبة له : "اتقوا الله فى سريرتكم وعلانيتكم. وأمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، ولا تكونوا مثل قوم كانوا فى سفينة فأقبل أحدهم على موضع يخرقه، فمنعوه فقال: هو موضعي ولي أن أحكم فيه، فإن أخذوا على يده سلم وسلموا، وإن تركوه هلك وهلكوا[3] مقتبسا ذلك من قول النبي ﷺ : "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، لو تركوهم وما أرادوا لهلكوا جميعا، ولو أخذوا على أيديهم لنجوا جميعا[4].

٢- سلوكها طريقا دينيا فى مثل خطب الجمعة والعيدين والحج والإرشاد والتوجيه والترغيب فى الثواب والترهيب من العقاب[5].

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٠، وانظر الدين الخالص ج٤ ص ٢٣٦.

(٣) الدين الخالص ج ٤ ص ٢٣٨.

(٤) الحديث أخرجه البخارى، وانظر الدين الخالص ج٤ ص ٢٣٨.

(٥) انظر: دراسات فى الأدب العربى أ.د/ طاهر عبد اللطيف عوض ١٣٠.

٣- عنايتها بجميع جوانب الحياة سواء كانت دينية أم سياسية أم اجتماعية، فقد كانت لسان حال الإسلام الذي فصل للناس كل ما يتصل بأمور دينهم ودنياهم.

٤- محاكاة القرآن الكريم فى الإقناع والتأثير فى النفوس، وإقامة الحجة والبرهان.

٥- صفاء ألفاظها، وسهولة عباراتها، ومتانة أساليبها[١]، وبعدها عن الغريب والحوشي، وتجنب السجع إلا ما يأتي عفوا غير متكلف.

٦- تنوعها بين الإيجاز والإطناب حسب المقام ومقتضيات الأحوال.

(١) انظر: دراسات فى الأدب العربى أ.د/ طاهر عبد اللطيف عوض ص ١٣٠.

الفصل الرابع

الشعر فى عصر صدر الإسلام
موقف الإسلام من الشعر

الفصل الرابع

الشعر فى عصر صدر الإسلام

موقف الإسلام من الشعر :

أ- موقف الرسول ﷺ من الشعر.

ب- لماذا لم يقل الرسول ﷺ شعرًا؟

ج- موقف الصحابة والتابعين وأهل العلم من الشعر.

د- الرد على من يكرهون الشعر.

أ- موقف الرسول من الشعر:

كان النبي ﷺ ينظر إلى الشعر على أنه كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق فلا خير فيه، وفى ذلك يقول ﷺ: "الشعر بمنزلة الكلام، فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام"(١).

وقد استمع ﷺ إلى الشعر، وأثاب بعض قائليه، وحث فى بعض المواقف على قوله، ودعا إلى إنشاده، فحين تطاول بعض شعراء المشركين على الرسول ﷺ وعلى دعوته، قال ﷺ : ما يمنع القوم الَّذين نصروا رسول الله

(١) الحديث أخرجه البخارى فى الأدب المفرد والطبرانى فى الأوسط بسند حسن، وانظر – فى ذلك – الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكى جـ ٢ ص ٢٧١.

بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم، وكان يقول لحسان بن ثابت: " قل وروح القدس معك"، وفى رواية "أجب عني، اللهم أيده بروح القدس"[1].

كما أنه ﷺ كان من أقدر الناس على تذوقه ونقده، وكيف لا يكون كذلك وهو أفصح العرب كافة؟!

ومما أثرعنه ﷺ فى هذا المجال:

١- أنشده حسان بن ثابت قوله – يرد علي أبي سفيان بن الحارث–:

هجوت محمدا فأجبت عنه

وعند الله فى ذاك الجزاء

فقال ﷺ : جزاؤك عند الله الجنة يا حسان. فلما قال حسان:

فإن أبي ووالده وعرضي

لعرض محمد منكم وقاء

قال ﷺ: وقاك الله حر النار، فقضى له بالجنة مرتين فى ساعة واحدة[2].

٢- أنشده النابغة الجعدي قوله:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا

وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرا

فقال ﷺ: أين المظهر يا أبا ليلى؟ فقال: الجنة يا رسول الله. فقال ﷺ: أجل إن شاء الله. ثم أنشدة الجعدي:

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ص ١٧ تحقيق الشيخ محمود شاكر، والدين الخالص ج٣ ص ٢٧١، وحسان بن ثابت لمحمد إبراهيم جمعة ص ٢٨، ٥٧، ٦٢.

(٢) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص ٥٣.

ولا خير في حلـم إذا لم تكـن لـه

بوادر تحمـى صـفوه أن يكـدرا

ولا خير فى جهـــــل إذا لم يكـن لـه

حليم إذا مـا أورد الأمـر أصـدرا

فقال ﷺ: أجدت، لا يفضض الله فاك. قال الراوي: فنظرت إلى الجعدى، فكان فاه البرد المنهل، ما سقطت له سن ولا انفلت، ترف غروبه [1].

٣- مر النبي ﷺ برجل يقول:

يأيها الرجـل المحـول رحلـه

هلا سألت عـن آل عبد الدار

فقال: ما هكذا كنا نسمعها.

فقال الرجل:

يأيها الرجـل المحـول رحلـه

هلا سألت عـن آل عبد مناف

فقال ﷺ: هكذا كنا نسمعها[2].

٤- روى أن أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها أنشدت قول قيس بن معدان الكلبى:

---

(١) ترف غروبه: تبرق ثناياه، وانظر: دلائل الإعجاز ص ٢٢، والشعر والشعراء ص ١٨١، وجمهرة أشعار العرب ص ٣٣.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢١ وانظر الأمالى للقالى جـ١ ص ٢٨٩، ٢٩٠.

ألا مـن رأى العبـدين أو ذكـرا لـه

عـدي وتيم تبتغـي مـن تحالف

فظنت عائشة وحفصة رضي الله عنهما أنها عرضت بهما، وجرى بينهن كلام، إذ كان أبو بكر من تيم قريش، وعمر من عدي قريش، فأخبرا النبي ﷺ بذلك، فدخل عليهن، وقال : "يا ويلكن، ليس فى عديكن ولا تيمكن قيل هذا، إنما قيل هذا فى عدي تميم وتيم تميم"[1].

ب- لماذا لم يقل الرسول ﷺ شعرا ؟

لم يقل النبي ﷺ شيئا من الشعر حتى لا يقال: إنه شاعر، أو يقال: إن القرآن لون من ألوان الشعر، وإذا كان كفار قريش وغيرهم قد قالوا ذلك كذبًا وافتراء على الله ورسوله فما بالكم لو كان النبي ﷺ يتعاطى الشعر أو ينظم شيئا منه؟

فإن قيل: فما رأيك فيما جرى على لسانه ﷺ من نحو قوله:

أنـــاالـــنبى لا كـــذب

أنا ابن عبد المطلــب

قلنا: إن هذا لا يعد شعرًا ولا يدخل فى باب الشعر، لأنهم يعرفون الشعر بأنه: الكلام الموزون المقفى قصدًا[2]، وما جاء على لسانه ﷺ إنما جاء موزونا مقفى اتفاقا كأي كلام يجري على لسان بعض الناس فيوافق وزنا وقافية، من غير أن يكون المتحدث قد قصد إلى شيء من هذا فإذا قلت: "اخرج فورًا يامحمود" تكون قد وافقت بحر المتدارك المجزوء، وإذا قلت: "ذاكر

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٠.

(٢) انظر: المجموعة الوافية بعلمى العروض والقافية أ . د/ عبد السلام سرحان ص ٧.

دروسك فى الصباح" تكون قد وافقت بحر الكامل المجزوء، وإذا قلت: "رأيتك نائما فوق السرير" تكون قد وافقت بحر الوافر.

فهذه الأوزان التي ظهرت فى تلك العبارات جاءت عفوا ودون قصد إلى موسيقى الشعر، ومثلها ما يقع كثيرا من العوام الذين لا معرفة لهم بالشعر، ولا علم لهم بأوزانه، ولا إلمام لهم بقواعده ولا تصور منهم للوزن البتة[1]...

ومما يؤكد عدم قصده ﷺ شيئا من الشعر – أنه كان إذا تمثل بشيء منه قدم وأخر بما يخرجه عن الوزن، تقول السيدة عائشة رضى الله عنها كان النبى ﷺ يتمثل بقول طرفة بن العبد:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا

ويأتيك بالأخبار ما لم تزود

فيجعله هكذا :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا

ويأتيك مالم تزود بالأخبار

فقال أبو بكر: ليس هكذا،فقال ﷺ: "إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لى"[2].

وتمثل ﷺ بعجز بيت لسحيم عبد بني الحسحاس فقال:

---

(١) المرجع السابق ص ١٠.

(٢) انظر: أثر الإسلام فى الشعر فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين د/ السيد عبد القادر عويضة ص ٣٥ ط مطبعة الأمانى سنة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م..

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا

فقال أبو بكر: إنما قال الشاعر:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا[1]

فلما أعاده النبي ﷺ كما ذكره أولاً قال أبو بكر: أشهد أنك لرسول الله ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ [2].

جـ- موقف الصحابة والتابعين وأهل العلم من الشعر:

كان أصحاب النبي ﷺعربا خلصا يحسنون تذوق الشعر، ويحثون على تعليمه، فقد كتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري: مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب. وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول: إذا قرأتم شيئا من كتاب الله عز وجل فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب، وكان يسأل عن تفسير بعض الآيات، أو عن معنى كلمة، فيستشهد على تفسيره بالشعر[3].

سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿ جَدُّ رَبِّنَا ﴾[4] فقال: عظمة ربنا، واستشهد بقول أمية بن أبي الصلت:

---

(١) هذا عجز بيت وصدره: " عميرة ودع إن تجهزت غاديًا".

(٢) سورة يس: الآية ٦٩، وانظر: أثر الإسلام فى الشعر د/ السيد عبد القادر عويضة ص ٣٦، والشعراء السود د/ عبده بدوى ص ٨٩.

(٣) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ١ ص ١٥٧ ومابعدها، وانظر: روح المعانى للألوسى ج ١٩ ص ١٥٠.

(٤) وتمام الآية ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ الجن : ٣.

لك الحمد وا لنعماء والملك ربنا

فلا شيء أعلى منك جدًا وأمجدا

وسئل عن قوله تعالى: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾[1] فقال : النقع: ما يسطع من حوافر الخيل، أما سمعت قول حسان:

عدمنا خيلنا إن لم تروها

تثير النقع موعدها كداء

ومن جهة نظم الشعر فقد سخر حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم من شعراء المسلمين شعرهم لنصرة الإسلام والرد على خصومه وأعدائه، ولم يبق أحد من خلفاء الرسول ﷺ إلا قال شعرًا أو تمثل به، ومن ذلك قول أبي بكر ﷺ في رثاء الرسول ﷺ[2]:

أجدك ما لعينك لا تنام

كأن جفونها فيها كلام[3]

(١) سورة العاديات : الآية ٤.

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٣٧، وله قصيدة في روح المعاني جـ ١٩ ص ١٤٨.

(٣) كلام (بكسر الكاف): جراح.

وقول عمر رضي الله عنه[1]:

مازلت مذ وضعوا فراش محمد

كيما يمرض خائفا أتوجع

وقول عثمان رضي الله عنه[2]:

غني النفس يفني النفس حتى يكفها

وإن عضها حتى يضر بها الفقر

وللإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ديوان شعر مطبوع، وإن كان قد نسب إلى الإمام علي ما ليس له، فإنه – بلا شك – كان له شعر جيد.

وقد رويت بعض الأشعار للحسن والحسين، وعبد الله بن العباس وغيرهم من الصحابة[3].

وكان التابعون ينظرون إلى الشعر نظرة الصحابة إليه، فكان عكرمة يقول: ما سمعت ابن عباس فسر آية من كتاب الله عز وجل إلا نزع فيها بيتا من الشعر. وقال سعيد بن جبير: سمعنا ابن عباس يسأل عن الشيء من القرآن فيقول: فيه كذا وكذا، أما سمعت الشاعر يقول كذا وكذا[4]، كما نسب الشعر إلى جماعة من أهل العلم منهم للإمام الشافعي رضى الله عنه وله ديوان مطبوع.

---

(١) المرجع السابق ص ٣٧.

(٢) روح المعانى للألوسى جـ ١٩ ص١٤٩.

(٣) انظر: روح المعانى للألوسى ج ١٩ ص ١٤٨ –١٥٠، والعمدة ج١ ص ٣٢– ٤٠.

(٤) انظر: وظيفة الشعر فى النقد العربى أ.د/ وليد قصاب (مقال بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبى) ــ العدد العاشر (١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م) ص ٢٦٧.

د- الرد على من يكرهون الشعر:

من يكرهون الشعر فريقان:

أحدهما: يكره الشعر لجهله به وبعده عن صناعته، أو لأنه لا يقوى على فهمه، فهذا الفريق قد أتاه التقصير من جهته، وقعد به عن الكمال عجزه أو اختياره.

والفريق الآخر: يكره الشعر لشبهة أو شبه قائمة فى نفسه. ومنشأ الكراهية عندهم إنما هو فى عدم الفهم الشامل أو الصحيح لبعض نصوص الكتاب والسنة، وأهم شبههم:

- أن الله تعالى ذم الشعراء، وشنع بهم، ونسبهم إلى الكذب وسلكهم فى عداد الغاوين، فقال: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [1].

- الرد على هذه الشبهة:

من الواضح الجلي أن الآيات التي جاءت فى آخر سورة الشعراء لم توجه الذم إلى جميع الشعراء إنما صنفتهم وجعلتهم فريقين[2]:

أ. فريق المضلين الذين يقولون ما لا يفعلون، والذين هم فى كل واد يهيمون، وهؤلاء هم شعراء المشركين ومن سار على شاكلتهم فى مناصبة

(١) سورة الشعراء: الآيات ٢٢٤- ٢٢٦.

(٢) انظر: أثر الإسلام فى الشعر د/ السيد عبد القادر عويضة ص ٢٧.

الإسلام والمسلمين العداء، أو المجاهرة بالفسق والعصيان فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قوله تعالى:﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ نزل فى شعراء المشركين عبد الله بن الزبعرى، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وسافع بن عبد مناف، وأبي عزة الجمحي، وأمية بن أبي الصلت، وغيرهم ممن كانوا يهجون رسول الله ﷺ ويتعرضون لدعوته"[1].

ب- الفريق الآخر: هو فريق المؤمنين الذين جندوا أنفسهم، للدفاع عن دين الله. والذود عن الرسول ﷺ وعن دعوته، فقد ذكر بعض المفسرين أن الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۚ ﴾ نزل فى رهط من الأنصار، هم : كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله لقد أنزل الله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ وهو يعلم أنا شعراء، هلكنا، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فدعاهم النبي ﷺ فتلاها عليهم[2].

ومادامت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فإن الاستثناء يعم جميع الشعراء الذين يسيرون على نهج الطائفة المستثناة .

وبناء على ذلك نقول: إن من يدعون أن الذم – هنا- يتوجه لجميع الشعراء إنما يبترون النصوص فيأخذون منها ما يوافق هواهم، ويتركون ما لا تتم الفائدة إلا به، لا لشيء إلا لأنه هادم لمذهبهم داحض لحجتهم.

---

(١) روح المعانى للألوسى جـ ١٩ ص١٤٩.

(٢) المرجع السابق جـ١٩ ص ١٤٧، وانظر: تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥٤، ٣٥٥.

٢- أن الله ﷻ نفى الشعر عن رسوله وبرأه منه فقال ﷻ :﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [١] وفى ذلك تنفير من الشعر وغض من منزلته.

الرد على هذه الشبهة:

إن تنزيه النبي ﷺ عن قول الشعر إنما هو لحكمة، وهي قطع ألسنة من يزعمون أن الرسول ﷺ شاعر أو أن القرآن الكريم لون من ألوان الشعر.

على أن نفي الشعر عن النبي ﷺ لا يغض من شأن الشعر، إذ لو كان فى عدم قوله ﷺ الشعر غض من شأن الشعر لكان فى أميته ﷺ غض من شأن القراءة والكتابة . وهذا ما لم يقل به أحد بل إن النبي ﷺ جعل فداء بعض الأسرى فى غزوة بدر تعليم عشرة من صبيان المدينة الكتابة[٢].

٣-أن النبي ﷺ نفر من قول الشعر وروايته، وحذر من امتلاء الجوف منه فقال: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرا"[٣].

---

(١) سورة يس: الآية ٦٩.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص ١٤، والعصر الإسلامى د/ شوقى ضيف ص ١٢٩.

(٣) الحديث رواه السبعة إلا النسائى، وقال الترمذى: حسن صحيح، انظر: الدين الخالص ج٣ ص ٢٧٢.

الرد على هذه الشبهة:

إن هذا الحديث قد حمله الإمام الشافعي وغيره من أهل العلم على الشعر المشتمل على الفحش[1]، وروى أن السيدة عائشة رضي الله عنها سمعت أن أبا هريرة يروي هذا الحديث فقالت : رحم الله أبا هريرة، إنما قال رسول الله ﷺ: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا مما هجيت به"[2].

وقال الطحاوي : هو عندنا على الشعر الذي يملأ الجوف فلا يكون فيه قرآن ولا تسبيح ولا غيره، فأما من كان في قلبه القرآن والشعر فليس ممن امتلأ جوفه شعرا[3].

وقال ابن رشيق: إنما المقصود بالذم هو من غلب الشعر على قلبه، وملك نفسه، حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله وتلاوة القرآن[4].

ويقول الإمام عبد القاهر: وكيف رويت هذا الحديث ولهجت به، وتركت قوله ﷺ: "إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرًا" ؟ وكيف نسيت أمره ﷺ بقول الشعر، ووعده عليه الجنة.

وقوله لحسان: "قل وروح القدس معك" وسماعه له، واستناده إياه وعلمه ﷺ به، وارتياحه عند سماعه؟![5].

---

(١) انظر: روح المعاني للألوسي ج١٩ ص ١٥٠.

(٢) المرجع السابق: الموضع السابق، وانظر تحقيق الشيخ/ محمود شاكر لدلائل الإعجاز ص ١٦.

(٣) الدين الخالص ج٢ ص ٢٧٢.

(٤) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٣٢.

(٥) دلائل الإعجاز ص ١٦، ١٧.

الذي يخالف الدين فالسنة العملية توجب صرف الذم والتقبيح إلى الشعر وتعاليمه، ويدعو إلى قيم الجاهلية ومثلها، وهذا هو المعنى الذي توحي به الآيات الكريمة فى سورة الشعراء[1].

وخلاصة القول أن الإسلام لم يطلق القول بتحريم الشعر ولم يقف منه موقف العداء أو المواجهة إنما عمل على تقويمه وتهذيبه بما يتفق ومبادئ هذا الدين.

أغراض الشعر وخصائصه فى عصر صدر الإسلام :

أولاً: أغراض الشعر فى هذا العصر:

لقد أحدث الإسلام تغييرًا كبيرًا فى مضمون الشعر ومرماه، فبينما يرتعد النابغة الذبياني من رهبة النعمان بن المنذر. فيقول [2] :

نبئت أن أبا قابوس أوعدني

ولا قرار على زأر من الأسد

يبدو كعب بن زهير متفائلاً مطمئنًا إلى جانب النبي ﷺ فيقول[3]:

نبئت أن رسول الله أوعدني

والعفو عند رسول الله مأمول

---

(١) معالم على طريق النقد القديم، د/ رجاء عبد المنعم جبر ج١ ص ٥٨.

(٢) ديوانه ص ٢٦.

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام جـ ١ ص ١٠١، والشعر والشعراء لابن قتيبه ج ١ ص ١٤٢.

إن ذلك لا يعد فرقا بين النابغة وكعب فحسب، إنما هو الفارق العظيم بين نور الإيمان الذي جاء به محمد بن عبد الله ﷺ وحياة الظلم والقهر التي عاشها العرب قبل بعثته، أو قل : إنه الفارق العظيم بين بطش النعمان وتسلطه وعفو الهاشمي وسماحته.

وهذا فضالة بن عمير الليثي يتحول في لحظة واحدة من عدو لدود للإسلام إلى جندي مخلص من جنوده، فقد جاء فضالة يريد قتل النبى ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا من النبي ﷺقال عليه أفضل الصلاة والسلام: أفضالة؟ قال: نعم فضالة يا رسول الله قال: بم كنت تحدث نفسك يا فضالة؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك ﷺ وقال: استغفر الله يا فضالة" ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه- وكان يقول: والله ما رفع ﷺ يده عن صدري حتى كان أحب خلق الله إلي – ثم رجع إلى أهله فمر بامرأة كان يحادثها فقالت : هلم إلى الحديث، فقال: لا "ثم انبعث قائلا[1]:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا

يأبى عليك الله والإسلام

لو ما رأيت محمدا وقبيله

بالفتح يوم تكسر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بينا

والشرك يغشى وجهه الإظلام

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص ٣١٨، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٣٠٨.

إن هذا التحول – بلا شك – وليد قدرة إلهية. وصدق الحق إذ يقول: "إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين"[1].

وهاكم عرضًا لأهم الأغراض الشعرية فى هذا العصر:

١ـ الدعوة إلى الإسلام ومبادئه السامية:

لقد حاول الشعراء المسلمون نشر عقيدة التوحيد، والدعوة إلى قيم الإسلام ومبادئه من خلال أشعارهم وقصائدهم التي تضمنت هذه المعاني على نحو ما نرى فى قول النابغة الجعدي[2]:

الحمد لله لا شريك له

من لم يقلها فنفسه ظلما

المولج الليل فى النهار وفى الل

يل نهارا يفرج الظلما

الخافض الرافع السماء على الـ

أرض ولم يبن تحتها دعما

ويقول كعب بن مالك[3]:

ونطيع أمر نبينا ونجيبه

وإذا دعا لكريهة لم نسبق

---

(١) سورة القصص: الآية ٥٦.

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٨٤ ط إحياء العلوم بيروت.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ١٩١/٢.

ومتى يناد إلى الشدائد نأتها

ومتى نر الحومات فيها نعنق[1]

من يتبع قول النبي فإنه

فينا مطاع الأمر حق مصدق

إن الذين يكذبون محمدا

كفروا وضلوا عن سبيل المتقي

ويدعو أبو قيس بن أبي أنس[2] إلى صلة الأرحام والإحسان إلى الأيتام، والاستغناء بالحلال، وترك الخنا، فيقول[3]:

يا بني الأرحام لا تقطعوها

وصلوها قصيرة من طوال

واتقوا الله في ضعاف اليتامى

ربما يستحل غير الحلال

واعلموا أن لليتيم وليًا

عالمًا يهتدي بغير السؤال

ثم مال اليتيم لا تأكلوه

إن مال اليتيم يرعاه وال

---

(١) الحومات: مواطن القتال. نعنق: نسرع.

(٢)هو أبو قيس صرمة بن أبي أنس بن صرمة بن مالك، أخو بني عدي بن النجار، وكان قد ترهب في الجاهلية وفارق عبادة الأوثان، واغتسل من الجنابة ، وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها، وقال أعبد رب إبراهيم حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم وحسن إسلامه، انظر السيرة النبوية لابن هشام: ٣٢٤/٢.

(٣)السيرة النبوية لابن هشام: ١٩١/٢.

واجمعوا أمركم على البر والتقوى

وترك الخنا وأخذ الحلال[1].

٢- الحث على التضحية والجهاد فى سبيل الله:

لقد ضرب أصحاب النبي ﷺ أعظم المثل فى الفداء والتضحية، إذ كانوا يبيعون أنفسهم رخيصة لله، ويحرصون على الشهادة فى سبيله حرص غيرهم على الحياة وملذاتها: فهذا عبد الله بن رواحة يتجهز مع أصحابه للخروج إلى غزوة مؤتة، فيقول لهم المسلمون: صحبكم الله، ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين، فيقول ابن رواحة[2]:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة

وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا[3]

أو طعنة بيدى حران مجهزة

بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا[4]

حتى يقال إذا مروا على جدثي

أرشدك الله من غاز وقد رشدا[5]

---

(١) الخنا: الفحش.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٨/٢.

(٣) الفرغ: السعة، والزبد فى الأصل: الرغوة والمراد هنا: شدة تدفق الدم.

(٤) حران: متعطش، مجهزة: سريعة القتل، تنفذ الأحشاء: تمضي فيها، وتخترقها.

(٥) جدثي: قبري.

فلما قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب تسلم ابن رواحة الراية بعدهما، فأخذ يهتف من أعماقه مثبتا نفسه على القتال[1]:

اقسمت يا نفس لتنزلنه

لتنـــزلن أو لتكرهنـــــه

إن أجلب الناس وشدوا الرنة

ما لي أراك تكرهين الجنة[2]

لقد طال ما قد كنت مطمئنة

هل أنت إلا نطفة فى شنة[3]

ثم يقول مشيرا إلى صاحبيه الشهيدين[4]:

يا نفس إلا تقتلي تموتي

هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت

إن تفعلي فعلـــــهما هديت

ثم نزل، فلما نزل أتاه ابن عم له بقطعة من لحم، وقال له: شد بها صلبك، فإنك قد لقيت أيامك هذه ما لقيت؛ فأخذها من يده فانتهس منها

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٩/٢، السيرة النبوية لابن هشام: ٢٨٤/٢.

(٢) الرنة: الصيحة الشديدة.

(٣) النطفة: القطرة، يقال: جاء وعلى جبينه نطاف من عرق، أي قطرات، والشنة: السقاء البالي، فيوشك أن تهراق النطفة أو يتخرق، ضرب بذلك مثلا لقصر عمره.

(٤) تاريخ الطبرى: ٤٠/٢لإسلامى ، وانظر: الأدب الإسلامى فى عصره الأول د/ صلاح الدين محمد عبد التواب ص ١٢٨، وصاحباه الشهيدان: هما زيد بن حارثه، وجعفر بن أبى طالب.

نهسة[١] ثم سمع الحطمة[٢] في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا ثم ألقاها من يده، وأخذ سيفه، فتقدم فقاتل حتى قتل[٣].

وهذا حسان بن ثابت يحرض على قتال المشركين الذين نقضوا العهد وقتلوا من قتلوا من خزاعة حلفاء الرسول ﷺ فيقول[٤]:

غبنا فلم نشهد ببطحاء مكة
دعاء بني كعب تحز رقابها
فيا ليت شعري هل تنالن نصرتي
سهيل بن عمرو وخزها وعقابها
وصفوان عود حز من شفر إسته
فهذا أوان الحرب شد عصابها[٥].
بأيدي رجال لم يسلواسيوفهم
بحق وقتلى لم تجن ثيابها[٦].

---

(١) انتهس منها نهسه: أذو منها طلب لا يعمه

(٢) الحطمة (يفتح الحاء وسكون الطاء) زحام الناس وحطم بعضهم بعضًا.

(٣) تاريخ الطبري: ٤٠/٢.

(٤) ديوانه: ٣٣٠، تحقيق سيد حنفي حسنين، والسيرة النبوية لابن هشام: ٣٠٣/٢.

(٥) صفوان : هو صفوان بن أمية بن خلف. والشفر حرف كل شيء.

(٦) قوله بأيدى رجال يريد به قريشا، تجن ثيابها: تستره يريد أن من قتلوا من خزاعة قد قتلوا ولم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم.

ولو شهد البطحاء منا عصابة

لهـان علينا يـوم ذاك ضرابها

فلا تأمننا يا ابن أم مجالـــد

إذا لفحت حرب وأعصل نابها[1]

ولا تجزعوا منـــا فإن سيوفنا

لها وقعــة بالمـــوت يفتح بابها

٣ – المديح:

وقد توجه – في جملته – إلى النبي ﷺ وإلى صحابته، ومنه قول حسان يمدح النبي ﷺ[2]:

أغَرُّ، عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّة خَاتَمٌ

مِـــنَ اللَّهِ مَشْهُـودٌ يَلُـــوحُ ويُشْهَـــدُ

وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيّ إلى اسمهِ

إذا قَالَ في الخَمْسِ المُؤذِّنُ أشْهَدُ

وشقّ لهُ منِ اسمهِ ليجلهُ

فـــذو العرشِ محمودٌ وهذا محمدُ

نَبيٌّ أتَانَا بَعْدَ يَأسٍ وَفَتْرَة منَ الرسلِ

والأوثـــــانِ فـــي الأرضِ تعبـــدُ

(١) ابن أم مجالد: هو عكرمة بن أبي جهل أمه: أم مجالد امرأة مـــن بني هلال بن عامر بن صعصعة " أعصل نابها: غلظ وأعوج، والمراد: احتدمت واشتدت.

(٢) ديوانه ص ٤٧ ط صادر بيروت.

فَأمْسَى سِرَاجاً مُسْتَنيراً وَهَادِيــاً
يَلُوحُ كما لاحَ الصّقِيــلُ المُهــَنَّدُ[1]
وأنذرنـــا نــاراً ، وبــشرَ جنـــــة
وعلمنـــــا الإســلامَ فاللهَ نحــمــدُ

وقوله يمدح أصحاب النبي ﷺ[2]:

إنّ الذوائبَ منْ فهــرٍ وإخوتــهم
قــدْ بيـنوا سنــة للنـــاسِ تتبــعُ[3]
يَرْضَى بهَا كُلُّ مَن كانَـتْ سرِيــرَتُه
تقوى الإلهِ وبالأمرِ الذي شرعـــوا
قومٌ إذا حاربوا ضــروا عـــدوهمُ
أوْ حاوَلُوا النّفْعَ في أشياعِهِمْ نَفعــوا
سجيـــة تلكَ منهـــمْ غيرُ محدثة
إنّ الخلائِقَ فاعلَمْ شرُّها البِــدَعُ[4]
إن كان في الناس سباقون بعدهمُ
فكلُّ سبقٍ لأدنى سبقهــمْ تبـــعُ

(١) الصقيل: السيف المجلو.

(٢) ديوانه ص ٢٣٨ تحقيق سيد حنفى حسنين.

(٣) الذوائب: جمع ذؤابة، وهى أعلى الشىء، المراد: أنهم سادة ذوو مكانة رفيعة.

(٤) السجية: الطبيعة. الخلائق: الطبائع.

لا يَرْقَعُ النّاسُ ما أَوْهَـتْ أكفُّهُـمُ
عندَ الدفاعِ ولا يوهـونَ ما رقعوا

لا يجهلونَ وإن حاولتَ جهلهـمُ
في فضلِ أحلامهمْ عن ذاكَ متسـعُ

إلى أن يقول:

أكرمْ بقومٍ رسولُ الله قائدهـم
إذا تفرّقَـتِ الأهْـوَاءُ والشِّيَـعُ

أهْدَى لهُمْ مِدَحي قوْمٌ يُؤازِرُه
فِيـما يُحِـبُّ لِسَـانٌ حائِكٌ صَنَعُ

فإنّهُمْ أفضَلُ الأحْيَـاء كلّهِـمِ
إنْ جَدّ بالنّاسِ جِدُّ القوْل أوْ سمعوا

وكان حسان بن ثابت قد قال هذه القصيدة في الرد على الزبرقان بن بدر شاعر بني تميم، وكانوا قد وفدوا على النبي ﷺ العام التاسع من الهجرة، فأقبلوا حتى دخلوا مسجد الرسول ﷺ ونادوا من وراء الحجرات[1] : أن اخرج إلينا يا محمد، فتأذى ﷺ من صياحهم ، وخرج إليهم، فقالوا:جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل، فقام عطارد بن حاجب فخطب ثم جلس، فقال الرسول لثابت بن قيس: قم فأجب الرجل في خطبته، فقام ثابت فخطب، ثم أنشد الشاعر التميمي الزبرقان بن بدر قصيدة مطلعها:

---

(١) وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ الحجرات : ٤- ٥.

نحن الكرام فلا حي يعادلنا

منا الملوك وفينا يقسم الربع

فلما فرغ الزبرقان قال الرسول ﷺ لحسان: قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال، فقام حسان وارتجل هذه الأبيات، فلما انتهى من إنشاده، قال بنو تميم : والله إن هذا الرجل، يريدون النبي ﷺ لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا، ثم أسلموا وجوزهم[1] النبي ﷺ فأحسن جوائزهم[2].

٤- الهجاء:

عندما دعا النبي ﷺ شعراء المسلمين إلى الدفاع عن دينهم، ونصرة الحق بألسنتهم انبرى ثلاثة الأنصار - حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة - ينافحون عن دينهم ورسولهم، ويكيلون لأعداء الإسلام والخارجين عليه الهجاء المر والمثالب الفاحشة.

وفى كتاب الأغاني أن النبي ﷺ قال : "أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسان بن ثابت فشقى واشتقى[3] وقد علق ﷺ على هجاء حسان المشركين بقوله "لهذا أشد عليهم من وقع النبل"[4].

---

(١) جوزهم: أعطاهم.

(٢) تاريخ الطبرى ج٢ ص ١١٥ -١١٩، وحسان بن ثابت لمحمد إبراهيم جمعة ص ٩٠- ٩٣.

(٣) الأغانى ج٤ ص ٦.

(٤) روح المعانى للألوسى ج ١٩ ص ١٤٨.

فقد كان هجاء حسان لأعداء النبي ﷺ من قريش تعريضا ولوما وحطا من قدرهم ينال من أحسابهم وأنسابهم، ويصمهم بالجبن والخوف ويرميهم بالفحش والدناءة [1] فى أسلوب لاذع موجع على حد قوله يهجو أبا سفيان بن الحارث[2]:

أبلغ أبا سفيان أن محمدا
هو الغصن ذو الأفنان لا الواحد الوغد
فما لك فيهم محتد يعرفونه
فدونك فالصق مثل ما لصق القرد

وقوله فى هجاء بني المغيرة[3]:

هَلاّ مَنَعْتُمْ من المَخْزَاةِ أُمَّكُمُ
يومَ الثنيّةِ من عمْرِوْ بْنِ يَحمُوم
بَنُو المُغِيرَةِ فُحْشٌ في نديّهِمِ
تَوَارَثُوا الفحش، بعد الكفرِ واللُّومِ
أسلمتموها فباتت غير طاهرة
ماء الرجال على الفخذين كالموم[4]

ويتناول آل سهم بشعر مقزع، ثم يقرر فى ختامه أنه لم يستطع أن يقول كل ما كان يريد استحياء من النبي ﷺ فيقول[5]:

(١) الهجاء د/ محمد سامى الدهان ص ٧١، ٧٢ سلسلة فنون الأدب العربى ط دار المعارف.
(٢) ديوانه ص ١١٨ وص ١٧٧ تحقيق د/ سيد حنفى حسنين.
(٣) ديوانه ص ١١٨ وص ١٧٧ تحقيق د/ سيد حنفى حسنين.
(٤) الموم : الشمع.
(٥) ديوانه ص ٣٤٤ تحقيق د/ سيد حنفى حسنين.

لولا النبي – وقول الحق مغضبة–

تركـــت لكـم أنثى ولا ذكرا

وكان بعض الشعراء يهجون المشككين بالكفر على حـد قـول كعب ابـن مالك[1]:

فكـب أبـو جهل صريعـا لوجهــه

وعتبـة قـد غادرنـه وهـو عـاثر

فأمسوا وقود النار فى مستقـرها

وكل كفـور فى جهنم صـائر

وكـان رسـول الله قد قال أقبلوا

فولوا وقالوا: إنما أنـت ساحر

فكان أشد القول عليهم فى الجاهلية قـول حسان وما نسج على منواله فلما أسلموا وفقهـوا الإسلام كـان وصفهم بالكفر والفسوق أشد عليهم وأقـوى تأثيرا فى نفوسهم.

٥– الاعتذار والاستعطاف:

لقد فتح الإسلام باب العفـو والتسامح علـى مصراعيه، مما دعـا كـثير مـن شــعراء المــشركين إلى التوبــة والنــدم والاعتــذار عمــا بــدر مــنهم فــى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص ١١.

حق الإسلام والمسلمين، فيعتذر ابن الزبعرى عن عدائه للإسلام والمسلمين فيقول"[1].

يارسول المليك إن لساني
راتسق ما فتقت إذ أنا بور[2]
إذ أبارى الشيطان في سنن الغي
ومن مال ميله مثبور[3]
آمن اللحم والعظام لربي
ثم قلبي الشهيد أنت النذير
إنني عنك زاجر ثم حيا
من لؤى وكلهم مغرور

فإنه يقر بخطئه الذي ارتكبه في مناهضة الدعوة الإسلامية، ويعترف بأنه كان يجارى الشيطان، بل يباريه في الصد عنها، ويتعهد بالتكفير عما مضى، فلسانه قادر على رتق ما فتق وإصلاح ما أفسد، ثم يعلن عن إيمانه الذي اختلط بلحمه ودمه، واستولى على قلبه، وتأتى كلمة "النذير" في قوله:

" أنت النذير" لتوحي بهذا الخوف الذي يشعر به الشاعر من داخله، يشعر به تجاه النبي ﷺ من جهة، وتجاه العذاب الذي ينتظر الكفرة والمشركين من جهة أخرى، ثم يعلن عما يمكن أن يقدمه للدين الجديد، فيذكر أنه سيكون دفاعا عنه زاجرا لأعدائه وخصومه.

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ج١ ص ٢٤٢ والبداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٣٠٨، والسيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص ٣١٩ .

(٢) راتق: ساد أو مصلح، فتقت: قطعت أو فسدت، بور: هالك.

(٣) أبارى: أجارى وأنافس، مثبور: هالك.

وحين هجا الحطيئة الزبرقان بن بدر بقوله[1]:

ما كانَ ذَنبُ بَغيضٍ أَن رَأى رَجُلا

ذا حاجة عاشَ في مُستَوعَرٍ شاسِ[2]

جـارٌ لِقَومٍ أَطالـــوا هــونَ مَنزِلِهِ

وَغـــادَروهُ مُقيـــماً بَينَ أَرماسِ[3]

مَلّوا قِـــراهُ وَهَـــرَّتهُ كِلابُهُــمُ

وَجَرَّحوهُ بِأَنيـــــابٍ وَأَضـــراسِ

دَعِ المَكارِمَ لا تَرحَل لِبُغيَتِـــها

وَاِقعُد فَإِنَّكَ أَنتَ الطاعِمُ الكاسي

فاستعدى عليه الزبرقان عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأنشده آخر الأبيات، فقال له عمر: ما أعلمه هجاك، أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا[4]؟

فقال الزبرقان : إنه لا يكون فى الهجاء أشد من هذا، فأرسل عمر إلى حسان بن ثابت فسأله عن ذلك فقال : لم يهجه ولكن سلح عليه[5] ويروى أنه سأل لبيدا فقال: ما يسرني أنه لحقني من هذا الشعر ما لحقه وأن لى حمر

---

(١) الشعر والشعراء ج١ ص ٣٢٧، ٣٢٨.

(٢) شاس: أصله شاس، وخفف لضرورة الشعر، وهو المكان الخشن الغليظ.

(٣) الأرماس: جمع رمس وهو القبر.

(٤) لم يكن هجاء الحطيئة خافيًا على عمر ﷺ ولكنه أراد درء الحدود بالشبهات ، فلما أصر الزرقان على موقفه أرسل عمر إلى حسان لإقامة الحجة على الحطيئة انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ج ١ ص ١١٦، واتجاهات النقد الادبى العربى أ . د/ محمد السعدى فرهود ص ٧٧، ٧٦.

(٥) الشعر والشعراء ج ١ ص ٧٧، ٧٦.

النعم [1] فأمر عمر بحبس الحطيئة وقال له: يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين، فأخذ الحطيئة يعتذر إليه ويستعطفه، فلم يلتفت إليه عمر ﷺ حتى قال: [2]

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ

زغب الحواصل لا ماء ولا شجر[3]

ألقيت كاسبهم في قعـــر مظلمة

فاغفر عليـك سلام الله يا عمر

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه

ألقت إليك مقاليد النهى البشر

لم يؤثروك بها إذ قدمـــوك لها

لكن لأنفسهم كانت بك الخيـر

فرق له عمر وأطلق سراحه بعد أن أخذ عليه عهدا ألا يهجو أحدا من المسلمين، ويروى أنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم[4].

٦ – الفخر:

لم يكن الفخر فى عصر صدر الإسلام تباهيا بالأحساب والأنساب كما كان فى الجاهلية، إنما كان تباهيا بالانتصار على أعداء الإسلام وتمدحا

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ٥٣.

(٢) ديوانه ص ١٦٤، ١٦٥ ط دار صادر بيروت .

(٣)الأفراخ : جمع فرخ، وهو ولد الطائر ، ويطلق على كل صغير من الحيوان والنبات والشجر، ذى مرخ: واد فدك والوابشة، ويروى : بذى أمر ، وبذى طلح ، خمص الحواصل : لم تكس الريش بعد ويروى : زغب الحواصل ، أى : خمص الحواصل .

(٤) الأغانى ج ٢ ص ٥٣.

بشجاعة المسلمين وأبطالهم، ومنه قول حسان بن ثابت يفخر بشجاعة قومه واختيار الله إياهم لنصرة الإسلام[1]:

اللَّهُ أكْرَمَنا بنصرِ نبيّه
وبنا أقامَ دعائـــمَ الإســلامِ
وَبِنا أعَزَّ نَبيَّهُ وَكِتَابَهُ
وأعزَّنَا بالضّـــــرْبِ والإقْـدَامِ
في كلّ معتركٍ تطيرُ سيوفنا
فيه الجماجمَ عن فراخِ الهامِ[2]
ينتابنا جبريلُ في أبياتنا
بفرائضِ الإسلامِ، والأحكــامِ
يتْلو علينا النُّورَ فيها مُحْكماً
قسماً لعمركَ ليسَ كالأقســامِ
فنكونُ أولَ مستحلِّ حلالهِ
وَمُحَـــرِّمٍ لله كُلَّ حَـــرَامِ

٧- الرثاء :

كثر الرثاء فى هذا العصر لكثرة من قتلوا من المجاهدين فى سبيل الله، وعندما لقى النبى ﷺ ربه أحس المسلمون بفداحة الخطب، وعظم المصاب،

(١) ديوانه ص ١٤٣ تحقيق د/ سيد حنفى حسنين.

(٢) الهام : الرءوس ، وفرخ الرأس : الدماغ على التشبيه ، والفرخ مقدم دماغ الفرس.

فأخذوا ينفثون عن آلامهم وما أصابهم لرحيل الرسول ﷺ عن دنياهم، على نحو ما نرى من قول حسان بن ثابت"[1]:

ما بَالُ عَينِـــي لا تَنَامُ كأنّمَـا
كُحِلَتْ مآقِيها بكُحْـلِ الأرْمَـــدِ
جزعاً على المهديّ أصبحَ ثاوياً، يا خيرَ من وطىء الحصى لا تبعدِ
جنبي يقيكَ التربَ لهفي ليتني
غُيِّبْتُ قَبْلَكَ في بَقِيـــعِ الغَرْقَد[2]ِ
أأُقِيمُ بَعْدَكَ فى المَدينَة بَيْنَهُمْ
يا لَهف نفسي ليتـــني لم أولـد
بأبي وأمي منْ شهدتُ وفاتــهُ
في يومِ الاثنينِ النبيُّ المهتدي
فَظَلِلْتُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُتلـــــددًا،
ياليتني صبحت سم الأســود
أوْ حلّ أمرُ اللهِ فينا عاجـــلاً
في روحة منْ يومنا أوْ فـــي غدِ
فتقومَ ساعتنا فنلقـى طيـــباً
مَحْضَاً ضَرَائِبُــهُ كَريـــمَ المَحْتِدِ[3]

(١) ديوانه ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ تحقيق سيد حنفى حسنين

(٢) الغرقد : ضرب من شجر العضاة ، واسم مقبرة أهل المدينة " سميت بذلك لكثرة هذا الشجر بها.

(٣) ضرائبه : طبائعه وأخلاقه وسجاياه . المحتد : الأصل .

واللَّهِ أسْمَعُ ما بَقِيتُ بهــالِكٍ

إلا بكيتُ علــى النبــيّ محمــدِ

ضاقتْ بالأنصارِ البلادُ فأصبحوا

سوداً وجوههمُ كلـــونِ الإثمدِ

وَلَقَـــــدْ وَلَدْنَـاهُ وَفِينَــا قَبْرُهُ

وفضولُ نعمتهِ بنا لمْ يجحــدِ

صَلّى الإلهُ وَمَنْ يَطيف بِعَرْشِهِ

والطيبونَ على المباركِ أحمدِ

٨- الوصف:

لقد أكثر الشعراء من وصف وتصوير الغزوات والمعارك الحربية، وهذا معبد الخزاعي يصف بأس وقوة أصحاب النبي ﷺ، ويحذر أهل مكة وأبا سفيان من لقائهم فيقول[١]:

كادت تهد من الأصوات راحلتي

إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل [٢]

تردى بأســـد كــرام لا تنابلــة

عند اللقاء ولا خـــرق معازيل

(١) تاريخ الطبرى ح ٢ ص ٥٣٥ – ٥٣٦.

(٢) الجرد : جمع أجرد ، وهو الفرس القصير الشعر ، الأبابيل : الجماعات .

فظلت عدوا أظــن الأرض مائلة

لما سموا برئيس غير مخـــذول

فقلت ويل ابن حرب من لقائكم

إذا تغطمطت البطحاء بالجيل[١]

إني نذير لأهل البسل ضاحية

لكل ذي أربة منهـــم ومعقول[٢]

من جيش أحمد لا وخش قنابله

وليس يوصف ما أنذرت بالقيل[٣]

٩- الغزل:

غزل هذا العصر فى - جملته - من الغزل التقليدي، فحين وظف الشعراء المسلمون فنهم وشعرهم لخدمة الدين ونشر الدعوة شغلوا - إلى حد كبير- عن ألوان الغزل الأخرى.

ثانيا: الأغراض الشعرية التي منعها الإسلام:

منع الإسلام كل ما يخالف الدين وهاكم أهم الأغراض التى منعها[٤]:

١- الشعر الذي يخالف العقيدة الإسلامية، ويدعو إلى غيرها من العقائد، أو إلى عبادة الأصنام والأوثان.

---

(١) تغطمطت : اضطربت . الجيل : الأمة ، وكل صنف من الناس .

(٢) السيل : اسم من أسماء مكة . ضاحية : علانية . المعقول : العقل .

(٣) الوخش : رزالة الناس وصغارهم . القنابل : جمع قنبلة ، وهى الطائفة من الناس .

(٤) راجع دراسات فى الأدب العربى أ . د / طاهر عبد اللطيف عوض ص ١٥٥- ١٥٦، الأدب الإسلامى فى عصره الأول أ. د / صلاح الدين محمد عبد التواب ص ١٩ ، ٣١.

٢- الشعر الذي يتناول وصف الخمر ومجالسها والحث على احتسائها ونحو ذلك.

٣- الغزل الفاحش الماجن الذي يهتك العورات ويخدش الحياء.

٤- شعر التفاخر بالأحساب والأنساب والدعوة إلى العصبية القبلية والأخذ بالثأر، وإثارة الفتن ونحو ذلك.

٥- الهجاء المقذع الذي يتناول المحارم ويهتك الأعراض[١].

٦- المديح الزائف والفخر الكاذب.

ثالثًا: الخصائص الفنية لشعر صدر الإسلام:

أ- من جهة بناء القصيدة:

١. تخلص بعض الشعراء من النسق التقليدي (الجاهلي) الذي كان يبدأ بالغزل وذكر الديار والدمن، فقد أخذ بعضهم يهجم علل ما يريده مكافحة، ويتناوله مصافحة، من غير أن يقدم لقصيدته بغزل ولا بكاء ديار أو وصف ناقة. وهذا حسان بن ثابت يبدأ الكثير من قصائدة بالحديث عن الذي يريده دون مقدمات، فيستهل قصيدته التي وصف بها أصحاب النبي ﷺ بقوله[٢]:

---

(١) يستثنى من ذلك ما كان من هجاء حسان بن ثابت لشعراء المشركين إذ كانوا قد تطاولوا على الإسلام والمسلمين ، وتعرضوا للرسول والرسالة ، فرأى حسان أن لا سبيل إلى إفحامهم إلا بالنيل من أعراضهم وأحسابهم ، لأن الهجاء بالكفر ونحوه لم يكن ليفحمهم وهم على شركهم ووثنيتهم .

(٢) ديوانه ص ٢٣٨ تحقق د / سيد حنفى حسنين .

إن الذوائب مـن فهـر وإخـوتهم

قـد بينـوا سـنة للناس تتبع

ويستهل إحدى قصائده فى الفخر بقوله[1]:

الله أكرمنـا بنصر نبيـه

وبنـا أقـام دعـائم الإسلام

ويستهل هجاء بني المغيرة بقوله[2]:

قالت قريش ذرا العليا فانخنثت

بنو المغيرة عـن مجد اللهاميم[3]

ويتهدد ضرار بن الخطاب بن مرداس القهري المسلمين بعـد غزوة بـدر يستهل قصيدته بقوله[4]:

عجبت لفخر الأوس والحين دائر

عليهم غدا والدهر فيه بصائر

ويجيبه كعب بن مالك فيستهل نقيضته بقوله [5]:

عجبـت لأمـر الله والله قـــــادر

علـى مـا أراد ليس لله قاهر

قضى يـوم بـدر أن نلاقي معشراً

بغوا سبيل البغـي بالناس جائر

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٣.

(٢) المرجع السابق ١٧٦.

(٣) انخنثت : رجعت . اللهاميم : جمع لهم ، وهو السابق الجواد الكثير الخير.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٠.

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ١٠، ١١.

٢- كثرت المقطوعات الشعرية كثرة واضحة إذ لم تترك لهم الأحداث المتلاحقة فرصة للهدوء والاستقرار، ومن ثم لم يكن لديهم من الوقت – أمام تلاحق الأحداث وتتابعها – ما يمكنهم من إعداد القصائد الطوال أو محاولة العودة عليها بالصقل والتهذيب والتثقيف كما كان يفعل بعض الشعراء فى الجاهلية[١].

وتعد المقطوعات الشعرية سمة من أهم سمات شعر المعارك والفتوحات فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الخاطفة لا يلتمس قائلوه المراجعة والتنقيح والإطالة إذ كانت المعارك قوية ساخنة لا تتيح لهم فرصة المراجعة أو التنقيح[٢].

ب- من حيث المعاني والأفكار:

كانت معاني الشعراء فى عصر صدر الإسلام مزيجا مما نشأوا عليه وورثوه فى الجاهلية، ومن المعاني الإسلامية، وربما غلبت المعاني الجاهلية فى بداية هذا العصر على من كانوا حديثي عهد بالإسلام، ثم تغلبت المعاني الإسلامية بعد أن استقر أمر هذا الدين ورسخت قواعده، وبخاصة عند من أشربت قلوبهم حب هذا الدين فانطلقت ألسنتهم معبرة عما يجيش فى صدورهم.

(١) انظر : الأدب الإسلامى فى عصره الأول د / صلاح الدين محمد عبد التواب ص ١٧١.

(٢) انظر : الأدب العربى فى عصر صدر الإسلام أ . د / محمد عرفة المغربى ص ٢٨.

فشعراء هذا العصر قد تنازعهم عاملان: عامل النشأة والتكوين الغنى، الذي نسجت خيوطه لدى معظمهم فى العصر الجاهلي، وعامل التأثر بهذا الدين الجديد الذي ثرى حياتهم الثقافية بما لا عهد لكم به من قبل.

على أن تأثرهم بالإسلام كان يتفاوت قوة وضعفا تبعا لتفاوتهم فى فهمه، وتعمقه فى نفوسهم، ومدى قربهم من الرسول ﷺ ومعايشتهم له، ومتابعتهم أحواله وأقواله[1].

وقد اتسمت معاني الشعراء فى هذا العصر بالقرب والوضوح والابتعاد عن المبالغة والتهويل والتعمق فى المعاني العقلية العسرة الإدراك[2].

جـ - من حيث الألفاظ والأساليب:

هجر الشعراء الألفاظ الغريبة والوحشية، والألفاظ التي منع الشارع استعمالها، وتأثروا بالمعجم القرآني والبيان النبوي، فشاعت فى أشعار الألفاظ الإسلامية، كالإسلام والإيمان، والقرآن والجهاد، والتقوى، يقول الحطيئة:

ولست أرى السعادة جمع مال

ولكن التقى هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخرا

وعند الله للأتقى مزيد

ويقول لبيد:

الحمد الله إذ لم يأتني أجلي

حتى كسانى من الإسلام سربالا

(١) راجع : الأدب العربى فى عصر صدر الإسلام د / حسن الشرقاوى ص ٨٩، ١٠١.

(٢) انظر : دراسات فى الأدب العربى أ . د/ طاهر عبد اللطيف عوض ص ١٥٢.

ويقول قيس بن عبد الله العامري:

وعمرت فى جاء أحمد بالهدى

وقوارع تتلـــــى مـــــن القرآن

ويقول كعب بن زهير:

مهال هداك الذي أعطاك نافلة ال

قرآن فيها مواعيظ وتفصيــل

- تأثر الشعراء فى أساليبهم بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، مما أضفى عليها جانبا كبيرا من الرقة والسهولة، والرونق والطلاوة. يقول حسان:

لك الخلق والنعماء والأمر كله

فإيـاك نستهدى وإياك نعبد

متأثرا بقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [1] .

ويقول أوس بن بجير الطائي:

ألم تــر أن الله لا رب غيره يصب على الكفار سوط عذاب

متأثرًا بقوله تعالى: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [2].

(١) سورة الفاتحة : آية ٥ .

(٢) سورة الفجر : آية : ١٣.

ويقول الحصين بن الحمام المري:

أعوذ بربـي مـن الخزيـا

ت يـوم ترى النفس أعمالها

وخـف المـوازين بالكـافرين

وزلزلــت الأرض زلزالهـا

متأثرا بالأسلوب القرآني فى سورتي الزلزلة والقارعة.

٣- ظهر أثر الإسلام واضحا فى استخدام أساليب القسم والدعاء على حد قول أبي صخر الهذلى:

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمر

فقــد تأثــر بقـوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴾[1]

وقول النعمان بن بشير فى الدعاء[2]:

ربي إني ظلمت نفسي كثيرا

فاعف عني أنت الغفور الودود

متأثرا بقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [3]

---

(١) سورة النجم : الآيتان ٤٣،٤٤.

(٢) شعر النعمان بن بشير الأنصارى ص ٩٢ تحقيق د/ يحيى الجبورى وراجع أثر الإسلام فى الشعر فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين د/ السيد عبد القادر عويضة ص ١٤٢- ١٤٥.

(٣) سورة القصص : آية ١٦ .

الفصل الخامس

تراجم ونصوص مختارة

الفصل الخامس

تراجم ونصوص مختارة

(أ) كعب بن زهير

نشأة كعب وشاعريته

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني، نشأ فى بيت من أعرق بيوت الجاهلية شعرًا، حيث كان أبوه زهير، وجده أبو سلمى – واسمه ربيعة– وأخوه بجير، وخال أبيه بشامة بن الغدير شعراء[1]، وقد اتصل الشعر فى جماعة من أبناء زهير حتى قيل: إنه لم يتصل الشعر فى ولد أحد من الفحول فى الجاهلية ما اتصل فى ولد زهير[2].

وكان زهير راوية لأوس بن حجر رائد المدرسة الأوسية أو مدرسة الصنعة، ويذكر الرواة الطريقة التي كان يخرّج بها زهير تلاميذه فيقولون: إنه كان يحفظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين، حتى تنضج موهبة الشعر فيهم ويقولون: إنه كان يخرج بولده كعب إلى الصحراء فيلقي عليه بيتا أو شطرا ويطلب إليه أن يجيزه تمرينا له وتدريبا على نظم الشعر حتى نضجت موهبته[3].

وقد ظهر نبوغ كعب ونضجت موهبته مبكرا، إذ يذكر الرواة أن النابغة الذبياني قال للنعمان بن المنذر:

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٣٠٦

(٢) الشعر والشعراء ص ٧٣

(٣) انظر: العصر الإسلامى د/ شوقى ضيف ص ٨٣، ٨٤.

تراك الأرض إما مت خفا

وتحيا إن حييت بها ثقيلا

فقال النعمان : هذا بيت إن أنت لم تتبعه بما يوضح معناه كان إلى الهجاء أقرب منه إلى المديح، فأراد النابغة ذلك فعسر عليه، فقال: أجلنى، قال: قد أجلتك ثالثا، فإن أنت أتبعته ما يوضح معناه فلك مائة من العصافير نجائب، وإلا فضربة بالسيف أخذت منك ما أخذت، فأتى النابغة زهير بن أبى سلمى، فأخبره الخبر، فقال زهير: اخرج بنا إلى البرية فإن للشعر برى، فخرجا، فتتبعهما كعب بن زهير – وإنه لغلام– فقال: يا عم أردفني، فصاح به أبوه، فقال النابغة: دع ابن أخي يكن معنا، فأردفه فتجاولا البيت مليا فلم يأتهما ما يريدان، فقال كعب : فما يمنعك أن تقول:

وذاك بأن حللت العز منها

فتمنع جانبيها أن يزولا

فقال النابغة: جاء بها ورب الكعبة، قد جعلت لك يا بن أخى ما جعل لي قال كعب: وما جعل لك يا عم؟ قال: جعل لي مائة من العصافير نجائب. قال : ما كنت لآخذ على شعري صفدا، فأتى النابغة النعمان بالبيت فأخذ مائة ناقة سوداء الحدقة[1]. فكلام النابغة يحتمل المدح والذم، وهذا ما يسميه

(١) الموشح للمرزبانى ص ٥٨، ٥٩.

علماء البلاغة التوجيه، ويعدونه من المحسنات البديعية[1] ، ولكن النعمان أراد أن يدخل كلام النابغة فى باب المدح الخالص دون احتمال للمعنى الآخر الذي لا يليقبمقام الملوك[2]وهذا ما أحدثه بيت كعب ويروى أن زهيرا عندما أتى كعب بهذا البيت ضمه إليه وقال : أنت – والله – ابني[3] .

وبلغ كعب من الشاعرية درجة جعلت الحطيئة يقول له: قد علمت روايتي لكم، وانقطاعي إليكم، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعرًا تذكر فيه نفسك وتضعني موضعا بعدك، فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع فقال كعب[4]:

فمَن لِلقَوافي شأنَها مَن يَحوكُها

إِذا ما ثَوى كَعبٌ وَفَوَّزَ جَروَلُ

كَفَيتُكَ لا تَلقى مِنَ الناسِ واحدا

تَنَخَّلَ مِنها مِثلَ ما نتنخل

يثقفها حتى تليـــن كعوبها

فيقصر عنها من يسئ ويعمل

(١) انظر: بغية الايضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى جـ ٤ ص ٦٤.

(٢) انظر : المقاييس البلاغية عند الجاحظ فى البيان والتبيين أ. د/ فوزى السيد عبد الله ص ٥٩.

(٣) انظر : الموشح للمرزبانى ص ٥٨.

(٤) الشعر والشعراء ص ٨٥ تقديم الشيخ حسن تميم دار إحياء العلوم بيروت.

قصة إسلامه [١] :

يذكر الرواة أن كعبا وأخاه بجيرا خريجا إلى أبرق العزاف [٢] " فقال بجير لكعب : اثبت فى الغنم حتى آتي هذا الرجل – يعني النبي ﷺ – فأسمع كلامه وأعرف ما عنده ، فلما سمع بجير كلام النبى ﷺ آمن به ، ودخل فى دين الله آمنًا مطمئنًا [٣]، فلما وصل خبر إسلامه إلى كعب أغضبه، فكتب إلى بجير بقوله– من الطويل[٤] :

ألا أبلغا عني بجيرا رسالة

فهل لك فيما قلت ويحك لكا [٥]

سقاك بها المأمون كأسا روية

فأنهلك المأمون منها وعلكا [٦]

ففارقت أسباب الهدى وأتبعته

على أي شيء ويب غيرك دلكا

---

(١)راجع: الاعتذاريات فى الشعر العربى حتى نهاية العصر العباسى: عرض ودراسة وموازنة (رسالة دكتوراه للمؤلف) ص ٨١ وما بعدها .

(٢) أبرق العزاف: ماء لبنى أسد فى طريق القاصد من البصرة إلى المدينة ، وقيل: سمى العزاف، لأنهم كانوا يسمعون فيه عزيف الجن . انظر: معجم البلدان جـ ١ ص ٦٨.

(٣) راجع : الأغانى ج ١٥ ص ١٤٢ وشرح قصيدة كعب بن الزهير لابن هشام الأنصارى ص ٣٣ تحقيق د/ محمود حسن أبو ناجى ط. مؤسسة علوم القرآن دمشق الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

(٤) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص ٣٣، ٣٤.

(٥) ويح : كلمة تقال إشفاقًا وترحمًا على من وقع فى هلكه لا يستحقها ، ويروى: " فلما قلت بالخيف هل لكا " الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ١٤٢.

(٦) النهل : السرب الأول ، والعلل الشرب الثانى ، ويروى : " سقيت بكأس آل محمد " لابن قتيبة ج١ ص ١٤٢.

على خلق لم تلف أما ولا أبا

عليه ولم تعرف عليه أخا لكا

فإن أنت لم تفعل فلست بآسف

ولا قائل إما عثرت لعالكا[1]

وأرسل بهذه الأبيات إلى بجير، فلما وصلت بجيرا أخبر بها النبي ﷺ فلما سمع ﷺ قوله: " سقاك بها المأمون " قال : مأمون والله – فقد كان يسمون رسول الله المأمون– ولما سمع قوله:

على خلق لم تلف أما ولا أبا ..... البيت قال ﷺ: أجل. لم يلف عليه أباه ولا أمه، ثم قال: " من لقي منكم كعب ابن زهير فليقتله، وكان ذلك عند انصرافه ﷺ عن الطائف فكتب بجير إلى أخيه كعب أبياتا يقول فيها[2]:

مَنْ مُبْلِغُ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي

تَلَوَّمُ عَلَيْهَا بَاطِلاً وَهِيَ أَحْزَمُ

إِلَى اللَّهِ لا الْعُزَّى وَلا اللاَّتِ وَحْدَهُ

فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النَّجَاءُ وَتَسْلَمُ

لَدَيَّ يَوْمٌ لاَ يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُفْلِتٍ

مِنَ النَّاسِ إِلاَّ طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمُ

---

(١) لعا : كلمة تقال للعاثر دعاء له بالإقالة من عثرته .

(٢) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص ٣٤، وزاد المعاد لابن القيم ج ٢ ص ٢٠٥، ٢٠٦ ط المطبعة المصرية بدون تاريخ .

فَدِينُ زُهَيْرٍ وَهُوَ لاَ شَيْءَ دينه

وَدِينُ أَبِي سُلْمَى عَلَيَّ مُحَرَّمُ

وأردفها : أن رسول الله ﷺ قد أهدر دمك، وأنه قتل رجالا ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، وأن من بقى ممن كانوا يؤذونه ويقفون فى سبيل دعوته كابن الزبعري وهبيرة بن أبي وهب قد هربوا فى كل وجه، وما أحسبك ناجيا، فإن كان لك فى نفسك حاجة فأقدم عليه، فإنه يقبل من أتاه تائبا، ولا يطالبه بما تقدم الإسلام. فلما بلغ كعبا الكتاب، ضاقت عليه الأرض، وأتى إلى مزينة لتجيره من النبيﷺ قأبت، فاشتد ضيق الأرض به وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان من عدوه، وقالوا : هو مقتول لا محالة، فلما أظلمت الدنيا فى عينيه لم يجد بدا من التوجه إلى النبي ﷺ والاعتذار إليه، فخرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل من جهينة كانت بينه وبينه معرفة، فأتى به إلى المسجد، ثم أشار إلى رسول الله ﷺ، وقال لكعب: هذا رسول ﷺ فقم إليه فاستأمنه، فقام كعب حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ ، ووضع يده فى يده، ثم قال : يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاءك ليستأمن منك تائبا مسلما فهل أنت قابل منه إن جئتك به؟ فقال: ﷺ نعم، فقال: أنا – يا رسول الله– كعب بن زهير، فقال ﷺ : الذى يقول ما يقول، ثم أقبل على أبي بكر فاستنشده الشعر، فأنشده أبو بكر:

سقاك بها المأمون كأسًا روية .... البيت

فقال كعب: لم أقل هكذا وإنما قلت[1]:

سقاك أبو بكر بكأس روية

وأنهلك المأمون منها وعلكا

فقال رسول ﷺ: "مأمون والله"، ثم أخذ كعب ينشده قصيدته (بانت سعاد) فلما وصل إلى قوله [2]:

إن الرسول لنور يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

رمى عليه النبي ﷺ بردة كان يلبسها، فأضحت هذه البردة ثوب فخر واعتزاز لكعب وبنيه على مر العصور، وقد أراد معاوية بن أبي سفيان ﷺ ، أن يشتريها منه ، وبذل له فيها عشرة آلاف درهم، فردها عليه كعب قائلا: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدا، فلما مات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألف درهم فأخذها منهم[3].

قصيدة بانت سعاد[4]:

تعد قصيدة " بانت سعاد" أشهر قصائد كعب على الإطلاق، بل إنها أشهر القصائد فى تاريخ أدبنا العربي، فقد نالت هذه القصيدة اهتمامًا كبيرًا من الباحثيين والكتاب، فبعضهم ينظر إليها من جهة ارتباطها بموقف تاريخي

---

(١) شرح قصيدة كعب بن الزهير لابن هشام ص ٣٦.

(٢)الأغانى جـ ٥ ص ١٤٣، وشرح قصيده كعب بن زهير لابن هشام ص ٣٦.

(٣) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص ٢٦

(٤) راجع رسالتنا " الاعتذاريات فى الشعر العربى حتى نهاية العصر العباسى: عرض ودراسة وموازنة" ص ٨٤ وما بعدها.

مشهور فى حياة كعب لعله أخطر موقف فى حياته كلها، فقد كانت هذه القصيدة بمثابة نقطة التحول أو الانطلاق نحو الدين الجديد.

كما أنها تمثل نفسية قائلها خير تمثيل ويمكن من خلال دراسة هذه القصيدة مع نظائرها أن نقف على العلاقة بين نفسية الشاعر وشعره[١] .

وبعضهم ينظر إليها من جهة كونها تمثل لوحة صادقة للعصر الإسلامي وتبرز الروح الإسلامية التي تمثلت فى أخلاق النبي ﷺ وعفوه وتسامحه مما ينبغي أن يتخذه المسلمون قدوة فى معاملتهم للأصدقاء والأعداء على حد سواء[٢].

وعنى بعضهم بإبراز ما فيها من الفوائد الأدبية واللغوية والجمالية فى اللغة العربية [٣].

مطلع القصيدة:

استهل كعب قصيدته بهذه المقدمة الغزلية– من البسيط[٤] :

بانَت سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ

مُتَيَّمٌ إِثرَها لَم يُفدَ مَكبولُ[٥]

(١)انظر: مطلع القصيدة العربية ودلالتها النفسية د/ عبد الحليم حقى ص ٩٨.

(٢) انظر: تقديم د/ محمود حسن أبو ناجى لشرح قصيدة كعب بن زهير بن هشام ص ٨.

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٨، وشرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام، وحاشيو الإسعاد على " بانت سعاد" للشيخ إبراهيم الباجورى ص ٢ ط مصطفى الحلبى.

(٤) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص ٢٣، ٣٤، وانظر : شرح ديوانه لأبى سعيد السكرى ص ٦.

(٥) بانت : فارقت . متبول : سقيم منقبض ، يقال : تبلهم الحب : أى أسقمهم وأضناهم، متيم : معبد مذلل، يقال : تيمه الحب وتامه : أى استعبده وأذله ، مكبول : مقيد .

وَما سُعادُ غَداةَ البَينِ إِذ رَحَلوا

إِلاّ أَغَنُّ غَضيضُ الطَرفِ مَكحـــولُ[1]

تَجلو عَوارِضَ ذي ظَلَمٍ إِذا اِبتَسَمَت

كَأَنَّهُ مُنهَلٌ بِالـــــــراحِ مَعلـــــولُ[2]

شُجَّت بِذي شَبَمٍ مِن ماءِ مَحنِيَةٍ

صافٍ بِأَبطَحَ أَضحى وَهُوَ مَشمولُ[3]

تَنفي الرِياحُ القَذى عَنُه وَأَفرَطَهُ

مِن صَوبِ سارِيَةٍ بيضٍ يَعاليـــــلُ[4]

أكرم بها خُلَّةً لَو أَنَّها صَدَقَت

موعودها أَو لَو أَنَّ النُصحَ مَقبولُ

---

(١) الأغن : الذى فى صوته غنة ، وهى صفة لمحذوف أى إلا ظبى أغن . غضيض الطرف : فاترة ، وغض الطرف : عبارة عن تراك التحديق واستيفاء النظر فتارة يكون ذلك لأن فى الطرف كسرًا وفتورًا خلقيين، وتارة يكون لقصد الكف استحياء . قال ابن هشام : والمراد هنا : الأول : انظر شرحه للقصيدة ص ٧١ ، وأرى أنه لا مانع من إرادة المعنيين معًا ، لأنها بذلك تكون قد جمعت بين جمال الخلق والخلق .

(٢) تجلو : تكشف . العوارض : جمع عارض وعارضة ، واختلف فى معناها فقيل: أنها الثنايا ، وقيل: الضواحك ، وقيل : إنها من الثنايا إلى أقصى الأسنان ، وقيل الأسنان كلها وقيل غير ذلك . الظلم : ماء الأسنان وبريقها ، وقيل : رقتها وشدة وبياضها . المنهل : اسم مفعول من أنهله : إذا سقاه النهل ، وهو الشرب الأول . الراح : الخمر معلول : اسم مفعول من علة يعله إذا سقاه للمرة الثانية .

(٣) شجت : كسرت بالماء : الشبم : الماء البارد . المحنية : ما انعطف من الوادى ، وذلك لأن ماءها يكون أصفى وأرق . الأبطح : مسيل الماء يكون فيه دقائق فيه دقائق الحصا . المشمول الذى ضربته ريح الشمال حتى يبرد.

(٤) أفرطه : ملأه . الصوب : المطر . السارية : السحابة تأتى ليلا . البيض اليعاليل (المراد بها) : الجبال المفرطة البياض ، ويكون المعنى " ملأ هذا الأبطح ماء جبال شديدة البياض ، نزل من صوب سحابة أتت بليل ؛ لأن ماء السحابة يتحصل أولاً فى الجبال ، ثم ينصب منها عند اجتماعه وكثرته إلى الأبطح ، وفى هذا الكلام تأكيد لوصف الماء البارد والصفاء . شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص ١٠٩.

لَكِنَّها خُلَّةٌ قَد سيطَ مِن دَمِها
فَجعٌ وَوَلعٌ وَإِخلافٌ وَتَبديلُ[1]

فَما تَدومُ عَلى حالٍ تَكونُ بِها
كَما تَلَوَّنُ في أَثوابِها الغولُ[2]

وَلا تَمَسَّكُ بِالعهد الَّذي زَعَمَت
إِلا كَما تُمسِكُ الماءَ الغَرابيلُ

فَلا يَغُرَّنَكَ ما مَنَّت وَما وَعَدَت
إِنَّ الأَمانِيَ وَالأَحلامَ تَضليلُ

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا
وما مواعيدها إلا الأباطيل[3]

أر جو وآمل أن تدنو مودتها
وما إخال لدينا منك تنويل[4]

(١) سيط : خلط ومزج . الفجع : ما أوجع من المصائب . الولع : الكذب .

(٢) الغول : نوع من الشياطين ، وقيل : إناثها ، وكانت العرب تزعم أنها تظهر للناس فى الفلاة فتتلون لهم فى صور شتى ، وتغولهم : أى تضلهم وتهلكهم . انظر : حاشية الإسعاد على بانت سعاد للشيخ إبراهيم الباجورى ص ٣٦ ، ٣٧.

(٣) عرقوب: اسم رجل يضرب به المثل فى الخُلف، فيقال: أخلف من عرقوب . انظر: مجمع الأمثال للميدانى جـ١ ص ٢٥٣ و جـ٢ ص ٣١١.

(٤) التنويل : النوال أو العطية.

استهلال كعب بهذا الغزل فى محضر النبي ﷺ:

استهجن بعض النقاد ابتداء كعب بهذا الغزل محتجين بأن القصيدة أنشدت فى حضرة النبى ﷺ فكان من الأدب ألا تبدأ بالنسيب[1]، وقد رد على هؤلاء، بأن بدء الشعر بالغزل كان من التقاليد العربية المستملحة ولم يكن أحد يذكرها إذ ذاك حتى ينسب إلى كعب ما هو منه براء[2].

ويدعم هذا أن النبي ﷺ أجازها، ولم ينكر على قائلها بل إنه أثابه فعفا عنه وألقى عليه بردته الشريفة.

وربما كان ذلك من قبيل التأليف للشاعر، ولكن إقراره ﷺ يظل حجة قوية على قبول هذا الغزل، فحاشاه ﷺ أن يقر الباطل أو يرضى عنه.

كما أن هذا الغزل لم يتعرض لشيء مما يخدش الحياء، أو يثير الشهوة، أو يهتك العرض والستر، على نحو ما نعرف من غزل ابن أبي ربيعة ومن كان على شاكلته ممن تجاوزوا الحد فى كشف العورات وهتك الأعراض.

ولو كان فى غزل كعب شيء من ذلك لرده النبي ﷺ ولانتحينا باللائمة على كعب، واستهجنا ابتداءه به فى حضرة المصطفى ﷺ.

---

(١) انظر: الموازنة بين الشعراء للدكتور زكى مبارك ص ٢٣ فهو الذى نقل هذا الرأى.

(٢) المرجع السابق: الموضوع السابق.

تضمن المطلع نفسية قائله:

من خلال ما تقدم عن جو القصيدة وظروف إنشائه نلمح أن نفسية كعب كانت مفعمة بأمرين لعلهما لم يبلغا فى حياته كلها من الشدة والقسوة ما بلغاه حينئذ. وهما : الخوف والسخط.

أما الخوف فكان من النبي الذي أهدر دمه، وكان هذا الخوف يزداد حدة كلما عرض كعب نفسه على قبيلة فردته، وأعلنت عدم قدرتها على الوقوف فى وجه النبي ﷺ .

وأما السخط فكان على هؤلاء الذين عرض عليهم نفسه فتخلوا عنه فى أحرج الأوقات أصدقاء وغير أصدقاء، ولم يستطع أحد منهم أن يجيره أو يحول بينه وبين وعيد النبي ﷺ.

وما كان كعب يظن أن الناس جميعا سيتخلون عن شاعر مثله بهذه الصورة، فإن كان للذين اعتنقوا الإسلام بعض العذر فى تخليهم عنه فإن الآخرين ليس لهم – فى نظر كعب – عذر ولا حجة، وإذًا فخلقهم ليس خلق الأصدقاء، ولا خلق الوفاء، وإنما هو خلق التلون والخديعة والغدر، وإنه – والأمر كذلك فى نظره – حري بأن تمتلئ نفسه عليهم سخطآ وإنكار [1] والواقع أن السخط على أخلاق صاحبته سعاد كان انعكاسًا حقيقيًا لنفسيته تجاه إخوانه وأصدقائه الذين كان يدخرهم للشدائد، ويعدهم للنائبات،

(١) انظر: المرجع السابق ص ١٠٠، ١٠١.

وما كان يخطر بباله أنهم يتخلون عنه، وينفضون من حوله، وهو فى أمس الحاجة إليهم ، ففوجئ بأنهم جميعا يصدون عنه. وينفرون منه، ويرجفون به، وشغل كل واحد منهم بنفسه، فرأى كعب أنهم أهل غدر وخيانة، لا يبقون على عهد أو صداقة، ولا يدومون على حال يتلونون بتلون الأيام فأضفى هو هذه الأخلاق الرذيلة على صاحبته سعاد التي تخلت هي الأخرى عنه، ولم تشذ عن كل من كان يعرفهم وتخلوا عنه وقت الشدة"[1].

وفى هذا ما يدعو إلى الشفقة له أو العطف عليه بعد أن أصبح فى حال الضعيف الذي تخلى عنه كل من كان يؤمل فيهم نصره أو الوقوف بجانبه، والكرم والمروءة يقتضيان العفو عمن كانت حاله كذلك.

وخلاصة القول أن سعاد كانت تمثل عنده ذلك المجتمع الوضيء شكله ومظهره الذي تراه فتخاله ممتلئًا بالحسن والجمال، فإذا وقفت على كنهه وحقيقته وجدته حسن المظهر سيئ المخبر.

وصف الناقة:

بعد أن تحدث كعب عن أخلاق صاحبته انتقل إلى الحديث عن الناقة التي امتطاها فى سبيل الوصول إلى غايته، فأحسن التخلص والانتقال، ثم مضى يصف ناقته بالقوة والصلابة والجلد متقفيًا أثر الشعراء السابقين، وبخاصة والده يقول كعب[2]:

---

(١) راجع المرجع السابق ص ١٠٢ .

(٢) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص ٢٤ .

غلباء وجناء علكـــوم مذكـــرة

فى دفهـــا سعـــة قدامهـــا ميـــل[1]

وقد قال زهير [2]:

فلما رأيـت أنهـا لا تجيـبنـــــي

نهضت إلى وجناء كالفحل جلعدا[3]

جماليـة لم يبق سيرى ورحلـتي

على ظهرها من نيها غير محفـــد [4]

فكل منهما وصف ناقته بأنها وجناء، وبأنها شديدة، واستخدم كعب كلمة علكوم فى حين استخدم زهير كلمة جلعد، وكل منهما تعطي معنى الشدة.

ويصف كعب نافته بأنها مذكرة، أي أنها كالذكر فى شدتها وقوتها، ويشبهها زهير بالفحل، فيقول: إنها جمالية: أى تشبه الجمل فى خلقها وقوتها.

وقد أتعب زهير ناقته وأجهدها حتى ذهب شحمها فلم يبق منه غير المحفد – وهو أصل السنام – فى حين أبقى كعب على نافته، واسترسل فى ذكر صفات القوة والجلد.

---

(١) غلباء : غليظة الرقبة" وجناء : عظيمة الوجنتين، العلكوم : الناقة العظيمة. مذكرة : تشبه الذكر فى عظم خلقها. دفها : جنبها . قدامها معيل : المراد أنها طويلة العنق .

(٢) ديوانه ص ١٩، ٢٠.

(٣) الجلعد : الناقة الشديدة أو الصلبة القوية.

(٤) جمالية : أى أنها كالجمل فى عظم خلقها وكمالها، نيها : شحمها ، المحفد : أصل السنام.

وأرى كلا منهما قد وصف ناقته بما يناسب المقام، فزهير كان قد قصد بناقته هرم بن بنان ممتدحا، فلا بأس إذا أن يجهد ناقته، بل إن من بلاغة الشاعر أن يجهدها فى مثل هذا الموقف، ليشعر الممدوح بالعناء الذي أصابه، والمشقة التي تكلفها فى سبيل الوصول إليه، أما كعب فيريد أن يقول: إن صاحبته صعبة المنال، لا تصل إليها إلا تلك العتاق النجيبات اللائي عرفن بالقوة والجلد.

الانتقال إلى الغرض:

بعد أن وصف كعب نافته، وأسهب فى وصفها انتقل إلى تصوير خوفه وفزعه وضيق الأرض به، وأخذ يقدم اعتذاره بين يدي النبي ﷺ يقول [1]:

يَسْعَى الوُشاةُ جَنابَيْها وقَوْلُهُمُ
إنَّك يا بْنَ أبي سُلْمَى لَمَقْتولُ
وقالَ كُلُّ خَليلٍ كُنْتُ آمُلُهُ
لا أُلْهِيَنَّكَ إنِّي عَنْكَ مَشْغولُ[2]
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبيلِي لاَ أبالَكُمُ
فَكُلُّ ما قَدَّرَ الرَّحْمنُ مَفْعولُ
كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وإنْ طالَتْ سَلامَتُهُ
يَوْماً على آلَةٍ حَدْباءَ مَحْمولُ [3]

(١) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص ٢٦، ٢٧.

(٢) لا ألهينك : لا أشغلنك عما أنت فيه بأن أسهله عليك أو أسليك.

(٣) الآله الحدباء : المراد بها النعش الذى يحمل عليه الميت، والحدباء التى فيها ميل .

أُنْبِئْتُ أنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنـي
والعَفْوُ عَنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ
مَهْلاً هَداكَ الذي أَعْطاكَ نافِلَةَ
الْقُرْآنِ فيها مَواعيظٌ وتَفْصيلُ (١)
لا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوالِ الوُشاة ولَمْ
أُذْنِبْ وقَدْ كَثُرَتْ فِيَّ الأقاويلُ
لَقَدْ أقُومُ مَقاماً لو يَقــومُ بِـه
أَرَى وأَسْمَعُ ما لم يَسْمَعِ الفيلُ
لَظَلَّ يرْعُدُ إلاَّ أنْ يكــونَ لَهُ
مِنَ الَّرسُولِ بِـإِذْنِ اللهِ تَنْويلُ (٢)
حَتَّى وَضَعْتُ يَميــني لا أُنازِعُــهُ
في كَفِّ ذِي نَقَماتٍ قِيـلُهُ القِيلُ
لَـذاكَ أَهْيَبُ عِنْـدي إذْ أُكَلِّمُــهُ
قيــلَ إنَّـكَ مَنْســوبٌ ومَسْئُولُ
مِنْ خادِرٍ مِنْ لُيوثِ الأُسْدِ مَسْكَنُهُ
مِنْ بَطْنِ عَثَّرَ غِيــلٌ دونَهُ غيلُ (٣)

---

(١) النافلة : العطية المتطوع بها زيادة على غيرها .

(٢) يرعد : يرتعد ويرتجف ، التنويل : العطية ، والمراد هنا الأمان.

(٣) خادر : داخل فى الخدر ، يقال : خدر الأسد : أى لزم عرينه وأقام به . الغيل : الشجر الكثيف الملتف.

يَغْدو فَيُلْحِمُ ضِرْغامَيْنِ عَيْشُهُما
لَحْمٌ مَنَ القَوْمِ مَعْفورٌ خَراذيلُ [1]
إذا يُساوِرُ قِرْناً لا يَحِلُّ لَهُ
أنْ يَتْرُكَ القِرْنَ إلاَّ وهَوَ مَجْدولُ [2]
مِنْهُ تَظَلُّ سَباعُ الجَوِّ ضامِزَةً
ولا تَمَشَّى بَوادِيهِ الأراجِيلُ [3]
ولا يَزالُ بِواديهِ أخُو ثِقَةٍ
مُطَرَّحَ البَزِّ والدَّرْسانِ مَأْكولُ [4]
إنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضاءُ بِهِ
مُهَنَّدٌ مِنْ سُيوفِ اللهِ مَسْلُولُ

فقد كثر من حوله الخائفون عليه، والمخوفون له ، والمرجفون به وتبرأ منه كل خليل أو صديق حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولم يجد مهربا من الرسول ﷺ إلا إليه، ولكنه لم يكد يذكر أن الذي توعده هو رسول الله ﷺ حتى انجلى عنه اليأس، وانكشفت عنه الغمة" [5].

---

(١) يلحم : يطعم لحمًا ، معفور : ملقى فى العفو ، وهو التراب ، مما يدل على عدم الاكتراث به ، خراذيل : قطع صغار .

(٢) يساور: يواثب، القرن : المثل والنظير، وقرن الإنسان نظيره فى الشجاعة أو الشدة أو القتال أو العلم أو نحو ذلك ، مجدول : ملقى على الجدالة وهى الأرض.

(٣) المراد بالجو هنا : البر الواسع ، ضامرة : يقال : ضمز الحيوان ضمرًا إذا أمك بجرته من فيه فلم يجتر من الفزع ونحوه، تمشى : تمشى أو تسير ، الأراجيل : جمع أرجال : جمع رجال أى أنه استخدام جمع الجمع والمراد : أن الرجال مهما كثروا لا يستطيعون السير بواديه .

(٤) أخو ثقة : المراد هنا : الشجاع الواثق بشجاعته، البز [المراد هنا] : السلاح ، الدرسان ، جمع درس ، وهو الثوب الخلق الذى درس وبلى.

(٥) انظر : حديث الأربعاء ج ١ ، ص ١٢٤.

وقد برزت فى ثنايا اعتذاره عدة أمور:

سخطه على هؤلاء الذين تنكروا له، وانصرفوا عنه وأرجفوا به ، فيتوجه إليهم بما يشبه السباب فى قوله : لا أبا لكم [1].

تأثره بالنزعة الإيمانية التي نعرفها فى شعر والده، فكل ما قدر الرحمن مفعول، وكل الأنام فى النهاية إلى مصيرهم المحتوم وإن تأخر الأجل ببعضهم إلى حين ، لكنه لم يستطع أن يخفى خوفه وفزعه، فقد تحمل من المعاناة ما لو رآه أو سمعه الفيل على ضخامته لظل مرتعدا حتى يناله عفو الرسول ﷺ [2].

وقد تأثر كعب فى ذلك بقول لبيد (من الرمل) [3]:

ومقام ضيـــــق فرجتـه

بمقامي ولساني وجـــدل

لـو يقوم الفيــل أو فيالـه

زل عن مثل مقامي وزحل

---

(١) انظر : مطع القصيدة العربية ودلالته النفسية د/ عبد الحليم حفنى ص ١٠٥.

(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٠٥، ١٠٦.

(٣) الشعر والشعراء ج١ ص ٢٨١، وهذا مما أخذه بعض النقاد على لبيد " وقالوا : ليس للفيال من الخطابة والبيان ولا من القوة ما يجعله مثلا وإنما ذهب إلى أن الفيل أقوى البهائم فظن أن فياله أقوى الناس ".

لم يكتف كعب بتصوير خوفه وفزعه ، فقد عمد إلى وصف النبي ﷺ بالقوة والبأس، والشجاعة والإقدام، مقتفيا أثر النابغة فى تعظيم ممدوحه مع التصاغر بنفسه والتضاؤل بها.

فقد ارتكز كعب على صفة القوة التي تثير الرهبة الشديدة فى النفوس، وهو عين ما كان يشعر به إزاء شخص الرسول ﷺ حينئذ [1] .

وشبه كعب النبي ﷺ بالليث كما فعل والده زهير في تشبيه هرم به، ولكنه فصل من صفات هذا الليث مالم يفصل والده [2]، فأسد كعب من هذه الأسود المتوحشة التي تعيش في الأجمة بين الأشجار الكثيفة الملتفة بالغابات المتداخلة، وذلك أدعى لتوحش الأسد وقساوته، وأضرى لافتراسه فإنه لا يطعم ضرغاميه إلا من لحوم القوم بعد أن يقطعها ويمزقها حتى لا يكلف صغاره مؤنة التقطيع أو استخلاص اللحم من العظم، كما أنه لا يساور قرنا إلا ألقاه مجدلا حتى أرهب السباع والرجال على السواء، فالسباع ساكنة من هيبته، والرجال أعجز من أن تسير بواديه، ومن هنا حق لكعب أن يرهب هذا الليث، وأن ترتعد فرائصه [3] من خشيته، ولا يستطيع أحد بعد ذلك أن يرميه بضعف أو جبن.

وبعد أن وصف كعب النبي ﷺ بهذه القوة والبسالة أراد أن يحترز لنفسه، لئلا يظن أنها قوة باطشة طائشة، أو ظالمة معتدية فأخبر أن هذا الرسول نور يستضاء به، وكأني به يريد أن يقول: إنها ليست قوة ظالمة ولا غاشمة، وإنما

---

(١) انظر : مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية د / عبد الحليم حنفى ص ١٠٦.

(٢) انظر : حديث الأربعاء د / طه حسين ج ١ ص ١٢٤.

(٣) الفرائص : جمع فريصة ، وهى لحمة بين الكتف والصدر ترتعد عند الفزع.

هي تلك القوة الممزوجة بالرحمة التي تفرض على العالم ذلك النور الذي جاء به خير الخلق هدى ورحمة للعالمين.

وهنا ألقى النبي ﷺ بردته الشريفة على كعب. ولكن كعبا سرعان ما عاد إلى صفة القوة التي أرهبته وسيطرت على كيانه فاخبر أنه ﷺ سيف صارم من سيوف الله التي سلت على الكفر والكافرين والفساد والمفسدين.

ويمكن أن يعلل لاتكاء كعب في مديحه للنبي ﷺ على صفة القوة بأمرين:

أحدهما: أن هذه الصفة هي التي أرهبته وأطارت النوم من عينيه واضطرته أن يرجع مستسلمًا ملقيًا نفسه بين رسول الله ﷺ.

الآخر: أنه كان لا يزال وثيق الصلة بالحياة الجاهلية التي تقدس البطولة والأبطال والقوة والبأس، وتأبى الخضوع إلا لمن كانت صفته كذلك، كما أنه كان يرى أن النبي ﷺ يستحق هذه الأوصاف وفوق هذه الأوصاف بما حققه من انتصارات أذهلت من سمع بها فى ذلك الوقت، بل لاتزال تذهل الكثيرين إلى يومنا هذا.

ثم انتقل كعب من مدح النبي ﷺ إلى مدح أصحابه فقال [1]:

في فتية من قريش قال قائلهم

ببطن مكة لمـــا أسلمـــوا زولـــوا [2]

---

(١) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص ٢٧-٢٨ .

(٢) زولوا : انتقلوا من مكة إلى المدينة ، يعنى بذلك الأمر بالهجرة .

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف

عند اللقـاء ولا ميـــل معازيـــل [١]

شم العرانين أبطال لبوسهم

من نسج داود فى الهيجا سرابيل [٢]

بيض سوابغ قد شكت لها حلق

كأنه حلـق القفعـاء مجـــدول [٣]

لا يفرحون إذا نالت رماحهم

قوما وليســـوا مجازيعا إذا نيلوا [٤]

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم

ضـــرب إذا عرد السود التنابيل [٥]

لا يقع الطعن إلا فى نحورهم

وما لهم عن حياض الموت تهليل [٦]

---

(١) الأنكاس : جمع نكس وهو الضعيف المهين . الكشف : جمع أكشف ، وهو الذى لا ترس معه فى الحرب . الميل : جمع أميال ، وهو الذى لا سيف معه ، أو الذى لا يحسن الركوب ولا يستقر على السرج . المعازيل : جمع معزال ، وهو الذى لا سلاح معه.

(٢) الشم : جمع أشم، وهو الذى فى قصبة أنفه علو مع استواء أعلاه. العرانين : جمع عرنين ، وهو الأنف ، والمراد أن فيهم استعلاء ، ورفعة اللبوس : [بفتح اللام] : ما يلبس من السلاح . السرابيل : جمع سربال ، وهو الدرع أو كل ما يلبس فى الحرب.

(٣) بيض : مجلوة صافية : سوابغ : طوال تامة ، وهما صفتان للسراويل . شكت لها حلق : أدخل بعض حلقها فى بعض ، القفعاء : شجر ينبسط على وجه الأرض يشبه حلق الدروع . مجدول : محكم الصنعة.

(٤) مجازيع : جمع مجزاع ، وهو الكثير الجزع .

(٥) الزهر : جمع أزهر ، وهو الأبيض، يعصمهم : يمنعهم . عرد : فر وأعرض. التنابيل : القصار ، مفردها تنبال

(٦) التهليل : التأخر ، ومصدرها هلل عن الشيء إذا تأخر عنه.

فوصفهم بالطاعة والقوة حيث أمرهم النبي ﷺ بالانتقال من مكة إلى المدينة فانتقلوا ممتثلين لأمره غير ضعفاء ولا عزل، فإنهم أبطال شم العرانين، عليهم الدروع السابغة التي أدخل بعض حلقها في بعض، وقد أحكم صنع هذا الحلق حتى صار كحلق القفعاء.

وقد ألفوا الحرب وتعودوا عليها حتى عرفوا بكبر الهمة، وشدة الصبر، وقلة المبالاة بالخطوب، لا يفرحون إذا حققوا النصر المؤزر فتلك عادتهم، كما أنهم لا يجزعون إذا كان القدر في غير كفتهم، لأنهم لا يعرفون طريق اليأس لقدرتهم على جمع الشمل، وقهر العدو، ورد كيده فى نحره، وأصل هذا المعنى من قول لقيط بن يعمر[1]:

لا مترفا إن رخاء العيش ساعده

ولا إذا عض مكروه به خشعا

وأخذه تأبط شرًا فقال[2]:

ولست بمفراح إذا الدهر سرني

ولا جازع من صرفه المتحول

---

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٠١، وديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ج ١ ص ٥٥ .

(٢) الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٩٤ ومنه أخذ هدبة بن خشرم العذرى قوله (من الطويل).

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب

الشعر والشعراء الموضع السابق .

ثم أخذ كعب بن مالك الشطر الثاني منه فاستخدمه في الفخر بشجاعة قومه وإخوانه فقال [1]:

بنو الحرب لا نعيا بشيء نقـولـــه

ولا نحن مما جرت الحرب نجزع

بنو الحرب إن نظفر فلسنا بفحـش

ولا نحن من أظفارهـــا نتوجـع

ثم قال حسان في مدح النبي ﷺ وصحابته الكرام [2]:

لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم

وإن أصيبوا فلا خور ولا جـزع

وأخيرا قال كعب بن زهير[3]:

لا يفرحون إذا نالت رماحهـم

قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

ويمضي كعب في حديثه عن الأنصار فيشبههم بالجمال الزهر، ويريد أن يصفهم بامتداد القامة، وعظم الخلق، وبياض البشرة، والرفق في المشي، وذلك دليل على الوقار والسؤدد، ولكن الشطر الثاني من هذا البيت جاء تعريضا بالأنصار، لأنهم كانوا غلاظا عليه، إذ يروي أن كعبًا حين كشف عن نفسه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ١٠٠ والبداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٥٥.

(٢) ديوانه ص ١٤٦.

(٣) شرح قصيدة كعب بن زهير ص ٢٧.

أمام النبي ﷺ قام رجل من الأنصار فقال له: يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه فقال له النبي ﷺ : دعه فإنه قد جاء تائبًا نازعًا[1].

ولم يرتض المهاجرون تعريض كعب بالأنصار، وقالوا: لم تمدحنا إذ هجوتهم فكفر عن ذلك بأبيات مدح بها الأنصار [2]، ثم أنهى كعب قصيدته بوصف المهاجرة بالجرأة والإقدام، وعدم المبالاة بالموت، لا يفرون فيقع الطعون في ظهورهم، وإنما يستعذبون الموت ويقبلون عليه، ولا يتأخرون إذا تأخر غيرهم ونكص على عقبيه، فلما سمع النبي ﷺ هذا الوصف جعل ينظر إلى من كان بحضرته من قريش، كأنه يوميء إليهم أن اسمعوا [3]:

وقد نظر كعب في هذا المعنى إلى قول الحصين بن الحمام المري[4]:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد

لنفسي حياة مثل أن أتقدما

فلسنا على الأعقاب تدمي كلومنا

ولكن على أقدامنا تقطر الدما

---

(١) انظر : شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص ٣٦.

(٢) من هذه الأبيات قوله – من الكامل – :

من سره شرف الحياة فلا يزل	فى مقنب من صالحى الأنصار
ورثوا المكارم كابرا عــن كابر	إن الخيار همو بنو الأخيـــار
يتطهـــرون يـــرونه نقالهم	بدماء مـــن علقوا من الكفار

(٣) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص ٣٧ وزاد المعاد لابن القيم ج ٢ ص ٢٠٧.

(٤) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام.

وفي قصيدة كعب بدت قدرته على التخلص وحسن الانتقال بيسر وسهولة، وكان أروع انتقالاته وأكثرها حذقًا ومهارة انتقاله من وصف صاحبته إلى وصف ناقته وانتقاله من وصف الرسول ﷺ إلى وصف أصحابه.

وكان كعب صادقًا مع نفسه لم يتكلف، ولم يلبس غير ثوبه، فقد كان جاهليا في كل ما قدم : في مطلعه الغزلي، وفي وصف ناقته، وفي مديحه للرسول ﷺ والمهاجرين لا تكاد تشم رائحة الدين الجديد، وهذا دليل على صدق الشاعر وقتها، إذ لم يكن قد تعرف علي قيم هذا الدين وأفكاره، أو تشبع بأخلاقه وتعاليمه [1].

وقد نظم أحد الشعراء المعاصرين لكعب وهو عبدة بن الطبيب[2] قصيدة غزلية تتفق مع قصيدة كعب في وزنها وقافيتها وبعض معانيها، ولولا اختلاف الغرض لقيل: إن ذلك من قبيل المعارضة .

فقد تأثر عبدة بكثير من معاني كعب، وقلت بتأثر عبدة مع أنهما متعاصران لأن قصيدة كعب قيلت بعد انصراف النبي ﷺ عن الطائف في السنة الثامنة من الهجرة [3]، أما قصيدة عبدة فقد قيلت بعد وفاة النبي ﷺ ، يفهم ذلك من قول أبي الفرج[4] وعبدة شاعر جيد ليس بالمكثر وهو مخضرم أدرك

---

(١) يراجع الأدب العربى فى الجاهلية وصدر الإسلام د / إبراهيم عوضين ص ٢٥، ٢٥٨.

(٢) هو عبدة بن يزيد بن عمرو بن وعلة بن أنس المعروف بعبدة بن الطيب من بنى عبد شمس ، شاعر مخضرم، مجيد ليس بالمكثر . انظر ترجمته فى الأغانى ج ١٨ ص ١٦٣

(٣) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٣٦٨.

(٤) الأغانى ج ١٨ ص ١٦٣.

الإسلام فأسلم، وكان في جيش النعمان بن المقرن [1] الذين حاربوا مع الفرس بالمدائن، وقد ذكر ذلك في قصيدته التي أولها [2]:

هل حبل خولة بعد الهجر موصول

أم أنت عنها بعيد الدار مشغول

فمضمون كلام أبي الفرج أن هذه القصيدة – وهي التي تأثر فيها عبدة بكعب – قد قيلت في أثناء حرب النعمان بن المقرن مع الفرس أو بعد ذلك، وحرب المسلمين مع الفرس لم تبدأ إلا بعد وفاة النبي ﷺ [3] مما يدفع إلى القول بأن قصيدة عبدة نظمت بعد قصيدة كعب، وطبيعي أن يكون صاحبها هو المتأثر.

وقد جاء حديث عبدة عن صاحبته خولة مشبها- في بعض جوانبه – حديث كعب عن صاحبته سعاد، فقد ذهبت خولة بقلب عبدة وارتهنته كما فعلت سعاد بكعب وكما فعلت أسماء بزهير، وفي ذلك يقول عبدة [4]:

فخامر القلب من ترجيع ذكرتها

رس لطيف ورهن منك مكبول [5]

---

(١) هو النعمان بن عمرو بن مقرن المازنى ، وكان واحدًا من المعدودين فى جيش سعد بن أبى وقاص فى موقعة القادية . انظر : تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٤٥٦.

(٢) الأغانى ج ٨ ص ١٦٣، والقصيدة المفضليات ج ٢ ص ١٦٣ وما بعدها .

(٣) راجع : تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٣٤٣ وما بعدها.

(٤) المفضليات ج ٢ ص ٦٥٤.

(٥) خامر القلب : خالطه . الرس ، أثر الحب.

كما أنها تشبه سعاد وأسماء زهير في غدرهما وخلفهما، وفي ذلك يقول عبدة [١]:

إن التي ضربت بيتا مهاجرة

بكوفة الجند غالت ودها غول [٢]

كما أن ناقته تشبه ناقة كعب في قوتها وصلابتها، وفيها يقول [٣]:

بجسرة كعلاة القين دوسرة

فيها على الأين إرقال وتبغيل [٤]

ويلاحظ أن الشطر الثاني من هذا البيت أخذ برمته من قول كعب [٥]:

ولن يبلغها إلا عذافـــــرة

فيها على الأين إرقال وتبغيل [٦]

ولولا اختلاف الغرض بين القصيدين، ولولا خشية الخروج عن الغرض الذي قصدته بالدراسة لمضيت في الموازنة بينهما، حيث إن تأثر عبدة بكعب في بعض معانيه وفي كثير من ألفاظه جاء واضحا جليا، وأقوى من أن يحمل على توارد الخواطر.

---

(١) المفضليات ج ٢ ص ٦٤٦.

(٢) ضربت ببتًا : بنته وسكنته ، مهاجرة : تاركه البدو ، وكوفة الجند ، المراد بها الكوفة ذلك المصر المشهور بالعراق . انظر : معجم البلدان ج ٤ ص ٤٩٠ .

(٣) المفضليات ج ١ ص ٦٤٧.

(٤) الجسرة : الناقة القوية الماضية ، علاوة القين : الحديدة التى يضرب الحداد وشبه الناقة بها لصلابتها واستحكام ظهرها . دوسرة : قوية . الأين : التعب . الإرقال والتبغيل : ضربان من السير ، فالإرقال نوع من الخبب وهو السير السريع . ويقال : خبا الفرس إذا نقل أيامنه وأياسره جميعًا فى العدو . والتبغيل نوع من المشى فيه اختلاف بين العنق والهملجة ، وكأنه مشبه بسير البغال لشدته.

(٥) شرح ديوان ص ٩ وشرح قصيدته لابن هشام ص ١٧٢.

(٦) العذافرة : الناقة الصلبة العظيمة.

حسان بن ثابت :

نسبه ومكانته:

هو أبو الحسام أو أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام من بني النجار الخزرجيين أخوال رسول الله ﷺ وكانت أمه الفريعة خزرجية مثل أبيه، وإليها كان ينسب فيقال له: ابن الفريعة .

وهو أحد الشعراء المعمرين عاش نحو مائة وعشرين عامًا ستين في الجاهلية وستين في الإسلام [١].

وقد نشأ حسان في بيت عريق نسبا وشعرا، فأبوه كان من سادة قومه وأشرافهم وجده المنذر هو الذي حكم بين الأوس والخزرج في يوم سميحة [٢] ، وكانوا قد حكموا في دمائهم يومئذ مالك بن العجلان بن سالم بن عوف فتعدى في مولى له قتل في هذا اليوم، وقال لا آخذ فيه إلا دية الصريح [٣]، فابوا أن يرضوا بحكمه، وحكموا المنذر بن حرام جد حسان، فحكم بإهدار دماء قومه الخزرج، واحتمل دماء الأوس [٤].

---

(١) انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٩٣ ، تقديم الشيخ حسن تميم ، ط دار إحياء العلوم بيروت ، والأغانى ج ٤ ص ٣ .

(٢) يوم سميحة : يوم من الأيام التى كانت بين الأوس والخزرج .

(٣) الصريح : الحر ، الخالص النسب.

(٤) انظر : طبقات فحول الشعراء لابن سلام ج ١ ص ٢١٦.

وبذلك يفخر حسان فيقول [١]:

وأبي في سميحة القائل الفا

صل يوم التقت عليه الخصوم [٢]

شاعريته :

كان حسان أحد المعرقين [٣] في قول الشعر، إذ كان هو، وأبوه وجده، وأبو جده شعراء، ثم اتصل الشعر في ولده عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، وحفيده سعيد بن عبد الرحمن [٤]، كما كانت ابنته ليلى شاعرة مجيدة [٥].

وكان حسان كثير الشعر جيده، وهو أشعر أهل المدر [٦]، يقول ابن سلام :

وأهل المدينة أشعر أهل القرى، وحسان أشعر أهل المدينة [٧]، ويقول أبو عبيدة: فضل حسان الشعراء لثلاث، كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي ﷺ في النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام [٨].

وكان الحطيئة يقول: أبلغوا الأنصار أن شاعرهم يريد حسان بن ثابت أشعر العرب [٩].

---

(١) ديوانه ص ٢٢٥ ط دار صادر – بيروت.

(٢) التقت عليه الخصوم . رضيت به وأجمعت على تحكمه .

(٣) المعرق : من تكرر الأمر فيه وفى أبيه وفى جده فصاعدًا ، ولا يكون معرقًا حتى يكون الثالث مما فوقه ، العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٣٠٨ .

(٤) العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٣٠٦.

(٥) انظر : الموشح للمرزبانى ص ٧٩، ٨٠.

(٦) أهل المدر : أهل المدن ، ويقال لهم : أهل القرى.

(٧) انظر : طبقات فحول الشعراء لابن سلام ج ٢ ص ٢١٥.

(٨) الأغانى ج ٤ ص ٣.

(٩) العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٣٩.

موقفه من حادثة الإفك :

يختلف الرواة حول موقف حسان ﷺ من حادثة الإفك فيرى بعضهم أنه كان فيمن تكلموا في حق السيدة عائشة – رضي الله عنها – ومنهم من ينكر ذلك ، ويستعبده من رجل كحسان سخر شعره للدعوة الإسلامية والدفاع عنها [١] .

والظاهر أن حسان لم يتكلم في ذلك من صميم قلب، وإنما نقل كلام ابن سلول فنسب إليه [٢]، وبلغ ذلك السيدة عائشة –رضي الله عنها – فأخذ من نفسها، ولكن سرعان مازال ذلك، فرضيت عنه، وكانت تكره أن يسب عندها وتقول: إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ [٣] ويقول [٤] : ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان، وما تمثلت به إلا رجوت له لجنة إذ يقول لأبي سفيان بن الحارث بن عبد اللطيف من الوافر [٥] :

هجوت محمدًا فأجبت عنه

وعنـــد الله في ذاك الجـزاء

---

(١) يراجع : حسان بن ثابت لمحمد إبراهيم جمعه ص ٤٠ " سلسلة : نوابغ الفكر العربى " ط . دار المعارف سنة ١٩٨٢م.

(٢) انظر : روح المعانى للألوسى ج ١٨ ص ١٠٣.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخارى فى صحيحة . كتاب المغازى باب حديث الإفك حديث رقم ٤١٤٥.

(٤) انظر : روح المعانى للألوسى ج ١٨ ص ١١٤.

(٥) ديوانه ص ٩ د ، ط دار صادر – بيروت ، بدون تاريخ .

أتهجوه ولست لـــــه بكفء

فشركما لخيركما الفداء

هجوت مباركـا برا حنيفـــا

أمين الله شيمته الوفاء

فمن يهجو رسول الله منكم

ويمدحه وينصره سواء

فإن أبي ووالده وعرضـــي

لعرض محمد منكم وقاء

وقد قال حسان يعتذر إلى السيدة عائشة – رضي الله عنها – مما نسب إليه من الطويل [1] :

حصـــان رزان ما تزن بريبـــة

وتصبح غرثى من لحوم الغوافـــل [2]

حليلة خير الناس دينًا ومنصبًا

نبي الهدى والمكرمات الفواضـل [3]

عقيلة حي من لؤي بن غالب

كرام المساعي مجدها غير زائـل [4]

---

(١) ديوانه ص ١٨٨ .

(٢) حصان : متحصنة عفيفة . رزان : ثابتة وقورة . ما تزن : ما تتهم . غرثى : خميص البطن . الغوافل : العفائف ، وسمين غافلات لأن الذى رمين به من الشر لم يهمهن قط ولا خطر ببالهن قط ، فهن فى غفلة عنه ، وهذا أبلغ من الوصف بالعفاف .

(٣) حليلة : زوجة .

(٤) عقيلة : كريمة .

مهذبة قد طيــب الله خيمـــها

وطهرهـــا من كل سوء وباطل [١]

فإن كنت قد قلت الذي زعمتم

فلا رفعت ســوطي إلى أناملي

وإن الذي قد قيل ليس بلائط

ولكنه قول امرئ بي ما حــل [٢]

فكيف وودي ما حييت ونصرتي

لآل نبي الله زين المحافــل

له رتب عال على الناس كلهـم

تقاصر عنه سورة المتطــاول [٣]

رأيتك- وليغـفر لك الله - حـــرة

من المحصنات غير ذات غوائل [٤]

فقد بدأ بمدح السيدة عائشة - رضي الله عنها - بما يناسب المقام، فوصفها بالعفة والوقار، وأنها أبعد ما تكون عن الريبة أو التهمة، وهي أرفع من

---

(١) الخيم : الطبع والأصل.

(٢) لائط : لاصق ، ماحل : ماكر ، يريد بى الدين والوقيعة.

(٣) الرتب " بفتح الراء " جمع رتبة ، وهى ما ارتفع من الأرض . والمراد هنا : المرتبة الرفيعة . سورة المتطاول : منزلته أو مرتبتة ، والمتطاول : المتعالى أو المترفع .

(٤) المحصنات : العفيفات . الغوائل : جمع غائلة ، وهى الشر والفساد .

أن تخوض في عرض غيرها، فإنها حليلة خير الناس نبي الهدى والمكرمات، كريمة من قوم كرام، خلقها الله من أصل طيب وطهرها من كل سوء .

ثم أخذ يبرئ نفسه ويدعو على يده بالشلل إن كان قد تكلم في حقها بسوء فكل ما قيل لا يخرج عن كونه وشاية من مكر أعدائه، فإن مثل هذا الافتراء لا يمكن أن يصدر عن رجل مثله وقف نفسه ولسانه على النبى ﷺ ودعوته وآل بيته، ثم أتى البيت الأخير عودا على بدء بدعم ما استهل به الشهادة لها بالعفة المتأصلة، والبعد عن موضع التهمة أو الشك، فقد حاول حسان أن يضفي عليها الطهر من كل جانب فهي عفيفة بنفسها كريمة من جهة أبويها ومن جهة كونها زوجة النبي ﷺ وفوق كل ذلك فإن الله قد أكرمها وتكفل بحفظها وصونها.

أثر الإسلام في شعره :

لقد أثر الإسلام في شعر حسان بن ثابت تأثيرا كبيرا من جهة شكله ومضمونه على السواء.

أما من جهة المضمون فقد وظف حسان فنه وشعره لخدمة الدعوة الإسلامية والذود عن حياضها، وتأثر – إلى حد كبير بالمعاني الإسلامية– فقد توجه مديحه إلى النبي ﷺ وإلى صحابته الكرام، فالرسول ﷺ يرى ما لا يرى الناس حوله، فينزل الوحي بتصديقه [1]:

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله

ويتلـــو كتـــاب الله في كل مشهـد

(١) ديوانه ص ٣٧٧ تحقيق د / سيد حنفى حسنين.

وإن قال في يوم مقالة غائب

فتصديقها في اليوم أو في ضحى غد

والصحابة الكرام حول رسولهم، حريصون على طاعته، غير متخاذلين عن نصرته [١].

أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم

فما ونى نصرهم عنـــه ومـــا نرعوا

إن قال سيروا أجدوا السير جهدهم

أو قـال عوجوا علينـــا ساعة ربعوا

مازال سيرهم حتى استقاد لهم

أهل الصليب ومن كانت له البيع [٢]

ونلمس في فخره الاعتزاز بالدفاع عن هذا الدين، وبنصرة النبي ﷺ على حد قوله [٣] :

كنا ملوك الناس قبل محمد

فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل

وأكرمنا الله الذي ليس غيره

إله بأيام مضـــت ما لها شكـل

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩.

(٢) استقاد : انقاد وخضع.

(٣) ديوانه ص ١٤١ تحقيق د/ سيد حنفى حسنين .

بنصر الإله والنبي ودينه

وأكرمنـا باسم مضى ماله عدل

ففخره الإسلامي أسمى ألوان فخره، " إذ أنه انتقل من الجاهلية بكل ذاتيتها وضآلتها إلى الإسلام بكل رحابته وسعته وامتداده، وقبول النفس لما أتى به من مبادئ، والخضوع له والتفاني فيه، إنه فخر بما يستحق أن يفخربه الإنسان النبيل من قيم وأهداف "[1].

وهكذا كان تأثره بالإسلام في سائر اغراضه، فقد صوب هجاءه اللاذع نحو الكفار والمشركين، يصمهم بما يذلهم ويخزيهم، وأخذ يصف الغزوات والفتوحات مصورا شجاعة المسلمين وحصدهم أعداء الإسلام، وحرصهم على الشهادة في سبيل الله، ورثى شهداء المسلمين من امثال حمزة بن عبد المطلب، وعبد الله بن رواحة، وزيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وغيرهم من الشهداء، فلما انتقل الرسول ﷺ إلى لقاء ربه رثاه حسان بأكثر من قصيدة، وتظهر في رثائه المعاني الإسلامية على نحو ما نرى في قوله يرثي النبي ﷺ[2] :

يبكون من تبكي السماوات يومه

ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد

وهل عدلت يوما رؤية هالك

رزيـــــة يـوم مـــــات فيه محمد

تقطع فيه منزل الوحي عنهم

وقد كـــــان ذا نور يغـــور وينجد

(١) الأدب العربى فى عصر الإسلام للأستاذ الدكتور/ محمد عرفة المغربى ص ٨١ .

(٢) ديوانه ص ٣٧٨ تحقيق د/ سيد حنفى حسنين .

يدل على الرحمن من يقتدي به
وينفذ من هول الخزايا ويرشد
إمام لهم يهديهم الحق جاهـدا
معلم صدق إن يطيعوه يسعـدوا
عفو من الزلات يقبل عذرهـم
وإن يحسنوا فالله بالخير أجـود
وإن ناب أمر لم يقوموا بحمـله
فمن عنده تيسير ما يتشـــدد
فبكى رسول الله يا عين عبـرة
ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد
وما لك لا تبكين ذا النعمة التي
على الناس منهـــا سابغ يتغمد
فجودي عليه بالدموع واعولي
لفقد الذي لا مثله الدهر يوجد
وما فقد الماضون مثل محمـد
ولا مثلـه حتى القيامة يفـقـد

إلى أن يقول:

وليس هوائي نازعا عن ثنائـه
لعلي به فـي جنـــة الخلد أخلد

مع المصطفى أرجو بذاك جواره

وفي نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

وأما من جهة الشكل فقد تاثر حسان في ألفاظه وأساليبه بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فكثرت في شعره الألفاظ الإسلامية ، وبدأ تأثره ببعض الأساليب القرآنية واضحا، ومن ذلك قوله [1] :

وغدوا علينا قادرين بأيدهم

ردوا بغيظهـــم على الأعقــاب

وكفى الإله المؤمنين قتالهم

وأثابهـــــم فى الأجر خير ثواب

متأثرا بقوله تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [2].

وقوله [3]:

وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا

عمي وهداة يهتدون بمهتد

متأثرا بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [4] كما استطاع حسان أن يتخلص في بعض قصائده من النمط

(١) ديوانه ص ١٢٠ تحقيق د/ سيد حنفى حسنين .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٢٥.

(٣) ديوانه ص ٣٧٧ تحقيق د / سيد حنفى حسنين.

(٤) سورة الرعد : الآية ١٦.

التقليدي الذي كان يسير عليه شعراء الجاهلية من بدء القصيدة بالغزل وبكاء الطلل فاستهل بعض قصائده بالحديث عن الغرض الأصلي دون تقديم ولا توطئة [1].

شبهة والرد عليها :

هناك من يرى أن شعر حسان لأن وضعف فى الإسلام عنه في الجاهلية ومنهم من يتجاوز ذلك إلى القول بأن شعر حسان قد سقط في الإسلام، لأن الشعر نكد بابه الشر فإن دخل في الخير ضعف [2].

وهذه الشبهة تؤوَّل إلى أمرين :

القول بأن الشعر نكد بابه الشر فإذا دخل في الخير ضعف.

وهذا القول مردود بأن الشعر الجيد لا ينحصر في أبواب الشر، فكم من شعر قوي جزل محكم النسج وليس مجاله الشر كشعر الحكمة، وشعر الوصف وشعر الحماسة، والحث على الجهاد والفضائل والمكرمات، وشعر الرثاء، وغير ذلك من الأغراض التي لا تعرف للشر سبيلا [3].

القول بأن شعر حسان ضعف أو سقط في الإسلام :

والرد على هذه الشبهة إنما يكون بمراجعة ديوانه، فمن يمعن النظر في شعر حسان يجد أن فحولة شعره لم تفارقه في جاهليته ولا في إسلامه على

---

(١) راجع ص ٩٤.

(٢) انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٩٢ تقديم الشيخ تميم ط . دار إحياء العلوم- بيروت.

(٣) انظر : الأدب الإسلامى فى عصره الأول أ . د / صلاح الدين محمد عبد التواب ص ٢١١.

أنه من الإنصاف أن نقول: إن الإسلام جدد شباب شعر حسان، وفتح له كثيرا من الأبواب ، وأضفى على أسلوبه رقة ودماثة وروعة بيانية لم تتهيا له من قبل .

ومن الإنصاف– أيضا – أن نقول: إن حسان قد استطاع أن يطوع فنه وموهبته الشعرية لخدمة هذا الدين الجديد، وأن يتألق في ميدان البيان تألقا يشهد به العدو قبل الصديق، إذ رأينا بني تميم يشهدون له بالشاعرية والتفوق على شاعرهم الزبرقان بن بدر التميمي [(١)].

ويستعيذ الحارث بن عوف المري بالرسول ﷺ من حسان وهجائه اللاذع فيقول:

يا محمد أجرني من شعر حسان، فوالله لو مزج به ماء البحر لمزجه [(٢)].

وقد توالت شهادات النقاد لحسان بالشاعرية والإجادة، وقالوا تقدمت اليمن في الشعر بامرئ القيس في الجاهلية، وبحسان بن ثابت في الإسلام، وروى أن الأصمعي نفسه قال: حسان بن ثابت من فحول الشعراء، فقال له أبو حاتم: تأتي له أشعار لينة فقال الأصمعي: تنسب له أشعار لا تصح عنه[(٣)]، وهذا هو بيت القصيد، إذ يؤكد ابن سلام على أن حسان قد حمل عليه ما لم يحمل على شاعر آخر[(٤)].

---

(١) راجع ص ٨٤ وانظر : تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١١٩.

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ج ١ ص ٢١٩.

(٣) انظر : حسان بن ثابت لمحمد إبراهيم جمعة ص ٧٠ .

(٤) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢١٥، وقد أشار أبن هشام إلى ذلك فى أكثر من موضع . انظر : سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٣١، ١٣٢، ١٩٦ .

وأخيرا يمكن القول بأن شعر حسان قد اكتمل في الجاهلية، وقد ازداد إيمانه في الإسلام، حين رغب أن يكون شاعر الرسول، فكان شاعره الأول مؤيدا بروح القدس، وكان عميد الشعر الإسلامي، وأشعر شعراء المدينة، لم يلحق به في ذلك أحد من شعراء عصره [1]، فاستحق – عن جدارة – أن يوصف بأنه شاعر الرسول ﷺ.

(ج) في الفروسية لأبي محجن الثقفي:

قال أبو محجن :

لا تسألى الناس عن مالى وكثرته

وسائلى القوم عن دينى وعن خلقى

قد يعلم الناس أنا من سراتهم

إذا سمـــا بصـــر الرعديـــدة الفرق [2]

أعطى السنان غداة الروع نحلته

وعامل الرمـــــح أرويـه من العلق [3]

---

(١) انظر : حسان بن ثابت لمحمد إبراهيم جمعة ص ٤٨ .

(٢) سراة القوم : خيارهم وأشرافهم ، الرعديدة : الجبان ، وسمى رعديدة لأنه إذا رأى الحرب ارتعدت فرائصه من شدة الخوف ، الفرق: الفزع ، وسما بصره : شخص من الفزع ، وبقى مبهوتا .

(٣) السنان : نصل الرمح ، جعل أبو محجن ما نال السنان من الدم نحلة (عطية بلا عوض) ، وعامل الرمح وعاملته : على قدر ذراع من السنان ، والسنان يكون فى أعلى الرمح ، العلق : الدم الذى يعلق بفم الجرح ، ثم كثر حتى سمى كل دم علقًا .

وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض

تنفى المسابيـــر بالإزبـاد والفهق [١]

عف الإياسة عما لست نائلة

وإن ظلمت شديد الحقد والحنق[٢]

وأكشف المأزق المكروب غمته

وأكتم السـر فيه ضربـة العنـــق[٣]

قد يقتر المرء يومًا وهو ذو حسب

وقد يثوب سوام العاجز الحمـق[٤]

قد يكثر المال يومًا بعد قلته

ويكتسى العود بعد الجدب بالورق

وقد أجود وما مالي بذي فنع

وقـــــد أكر وراء المحجر البرق[٥]

وأهجر الفعل ذا حوب ومنقصة

وأترك القــول يدنيني من الرهق[٦]

---

(١) الطعنة النجلاء : الواسعة الشق ، العرض : الناحية ، المسابير : جمع مسيار ، وهو الميل الذى تقدر به الجراحات ليعرف غورها ، الفهق : كثرة الدم .

(٢) الإياسة: اليأس، الحنق: الغيظ.

(٣) المأزق: المضيق في الحرب، وهو حيث يلتقي الزحفان، ويعترك الفريقان، المكروب: مفعـــول بمعنـــى فاعـــل، ويروى المخشي غمته، وغمة المأزق: ضيقه وشدته.

(٤) يقتر المرء: يقل ماله، يثوب: يرجع ويجتمع ويكثر، سوام العاجز: ماشيته، والمراد: ماله، الحمق: الأحمق.

(٥) الفنع: الكثرة، المحجر: المضيق عليه في الحرب، البرق: الشاخص البصر.

(٦) الحوب: الإثم، الرهق: السفه والحمق، وركوب الشيء، والمرهق: الموصوف بالجهل وخفة العقل.

التعريف بقائل النص:

هو أبو محجن عمرو بن حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف الثقفي، وقيل: اسمه مالك بن حبيب، وقيل: عبد الله بن حبيب، وقيل: اسمه كنيته ـ أبو محجن ـ وكنيته أبو عبيد، والأرجح ـ وهو ما عليه أكثر الرواة والمؤرخين ـ أنه عمرو بن حبيب، غير أنه اشتهر بكنيته فغلبت اسمه، وقامت مقام العلم عليه(١).

وقد أسلم أبو محجن مع وفد قومه من ثقيف في شهر رمضان من السنة التاسعة من الهجرة، وكان واحدًا من الشعراء الشجعان المشهورين بالشجاعة في الجاهلية والإسلام، كما أنه كان معروفًا بالنجدة والبأس، كريمًا جوادًا، غير أن الشراب كان قد غلب عليه فضرب فيه مرارًا، ثم أقلع عنه، وتاب توبة نصوحًا عبر عنها في مواضع متعددة من شعره(٢).

وكان أبو محجن يوم القادسية في محبس سعد بن أبي وقاص، فأخذ يستعفيه ويستأذنه في القتال، فمنعه سعد ورده، وكان أبو محجن مقيدًا عند أو ولد لسعد، فما زال يعطيها العهود والمواثيق لئن فتح الله على المسلمين ليعودن إلى قيده حتى أطلقته، وحملته على فرس لسعد، فأخذ الرمح وخرج، فقاتل وأبلى بلاءً حسنًا، وحطم المشركين حطمًا شديدًا، فقال سعد: لولا أن

---

(١) راجع في أخبار أبي محجن: طبقات فحول الشعراء لابن سلام ج١ص٢٥٨-٢٦٥، والشعر والشعراء لابن قتيبة ج١ص٤٢٣، والأغاني ج٢١ص١٣٧، وأسد الغابة لابن الأثير ج٥ ص٢٧٦ ترجمة رقم ٦٢٢١، والإصابة لابن حجر ج٤ ص١١٣٧ ترجمة رقم ١٠١٧.

(٢) انظر: شرح ديوانه لأبي هلال العسكري ص٤٠، ٤١، ٤٥، ٦١.

أبا محجن محبوس لقلت: الفارس أبو محجن، وهذه البلقاء تحته، فلما فتح الله على المسلمين رجع أبو محجن إلى محبسه، وعلم سعد بالخبر، فقال لأبي محجن: لا ضربتك في الخمر أبدًا، فقال أبو محجن: وأنا ـ والله ـ لا أشربها أبدًا، وتاب توبته الصادقة، وكانت وفاته سنة ثلاثين من الهجرة.

أضواء على النص:

لقد أحسن أبو محجن الاستهلال، واستطاع ـ من خلال بيته الأول ـ أن يعطينا صورة مجملة لفلسفته في القصيدة التي تدور ـ في جملتها ـ على أن مكانة المرء لا تقاس بثرائه أو كثرة ماله، إنما تقاس بالنظر إلى دينه وخلقه .

واستهل بقوله: "لا تسألي" مخاطبًا امرأته أو صاحبته، وكان من عاداتهم أن يخاطبوا نساءهم في ابتداءات قصائدهم إذا حضروا، ويخاطبوا خليليهم إذا سافروا على حد قول امرئ القيس :

خليلي مرا بي على أم جندب

لنقضي حاجات الفؤاد المعذب

وقوله :

يا صاحبي قفا النواعج ساعة

نبك الديار كما بكى ابن حمام[1]

وقد استخدم أبو محجن طباق السلب بين قوله: "لا تسألي"، وقوله: "وسائلي" تنبيهًا على ما ينبغي أن يسأل عنه وما ينبغي ألا يسأل عنه، وذكر الخلق بعد الدين من باب ذكر الخاص بعد العام تأكيدًا على مكانة الخلق، وجعله محورًا رئيسًا في الحكم على الإنسان مدحًا أو قدحًا .

(١) النواعج من الإبل: البيض الكريمة.

وقد أخذ أبو محجن بيته الأول من قول المنخل اليشكرى :

لا تسألى عن جل مالي وانـ (م) ــظري حسبي وخيري

ثم شرع في التفصيل بعد الإجمال، فذكر أنه شجاع مقدام، جواد كريم حتى مع قلة المال، عف الإياسة، عاقل، كتوم للسر، بعيد عن الفحش والخنا.

ويفخر في البيت الثاني بأنهم سراة القوم المحامون عنهم، الصابرون على مراس العدو، غير أنه لم يوفق في قوله: " إذا سما بصر الرعديدة الفرق"، ولو أنه قال: إنا نغير ونحامي إذا سما بصر الشجاع الصبور لكان أجود، بل أبلغ"[1]؛ لأن الرعديدة الفرق يفزع لأدنى ما يثير الفزع، فكان الأولى به أن يؤكد أنهم لا يفزعون وإن فزع الأبطال المحامون وأحجموا، على حد قول الأعشى :

وإذا تكون كتيــبة ملمومــة

خرساء يخشى الدارعون نزالها [2]

كنت المقدم غير لابس جنة

بالسيف تضرب معلمًا أبطالهـا

---

(١) شرح ديوان أبي محجن لأبي هلال العسكري ص٢٦.

(٢) الكتيبة الخرساء التي لا يسمع لها صوت من كثرة الدروع، وقيل: هي التي رزنت فلم يسمع لأصحابها صــوت من وقارهم في الحرب.

وسرعان ما انتقل أبو محجن من الحديث عن قومه إلى الحديث عن نفسه، فهو يعطي السنان يوم الروع نحلته، ويوفيه حقه، ويرويه وعامل الرمح من دماء أعدائه، كما أنه ماهر في الطعان، يطعن الطعنة النجلاء عن عرض، كأنه يختلسها اختلاسًا، واختلاس الطعنة عندهم محمود، وقد قال الفند الزماني:

وقد أختلس الطعنـــــ

ـــــة لا يدمي لها نصلي

وطعنة أبي محجن نافذة، تغور في الجسم حتى يتدفق الدم فلا يثبت المسبار الذي يستخدم لمعرفة عمق الجرح.

ويذكر في البيت الخامس أنه عف الإياسة، لا يطمع فيما لا يناله، بل يأس منه يأس عفاف لا يأس قنوط وكفر، وأجود منه ـ في هذا المعنى ـ قول عنترة العبسي:

يخبرك من شهد الوقائع أنني

أغشى الوغى وأعف عند المغنم

فأرى مغانم لو أشاء حويتها

ويصدني عنها الحيـــا وتكرمي

فإذا كان أبو محجن يعف عما لا سبيل إلى مناله فإن عنترة يعف عن الشيء وهو حقه وفي متناول يده، وهذا أبلغ في العفاف وأعظم.

وقد تأثر أبو محجن في قوله: "وإذا ظلمت شديد الحقد والحنق" بقول عنترة:

وإذا ظلمت فإن ظلمي باسل

مر مذاقته كطعم الحنظل

وبيت عنترة أجود فنيًا[1]، لأنه لا يقف من الظلم موقفًا سلبيًا، إنما يرد عليه بظلم أقسى منه، وعبر عن المعاقبة والمجازاة بالظلم على سبيل المشاكلة، أما أبو محجن عندما يظلم فإنه يكون شديد الحقد والغيظ، غير أنه لم يظهر لنا أثر هذا الغيظ على أعدائه، كما أن لعنترة فضل السبق.

وفي البيت السابع يطالعنا أبو محجن بحكمة مفادها أن الإقتار قد يصيب الغني ذا الحسب، كما أن الغني ليس ببعيد عن العاجز الحمق، فلا ينبغي أن يغتر الغني بغناه، أو ييأس الضعيف لضعفه وفقره.

ويأتي البيت الثامن امتدادًا وتأكيدًا للبيت الذي قبله، فالمال قد يكثر بعد قلته، كما أن العود قد يورق بعد جدبه ويبسه.

ويعود أبو محجن إلى ذكر محامده، فهو جواد على قلة ماله، فالفخر الحقيقي لا يكون بكثرة المال، إنما يكون بكثرة الإحسان، يقول أبو هلال: "وليس اليسار مما به مدحًا حقيقيًا، ألا ترى كيف يقول أشجع السلمي:

يريد الملوك مدى جعفر

ولا يصنعون كما يصنع

---

(١) أما دينيًا فالأولى بالإنسان أن يعفو ويصفح، يقول الحق – سبحانه وتعالى- ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ ﴾الشورى: ٤٠. على أن أبا محجن لم يتفوق على عنترة حتى في ضوء هذا المقياس، لأنه لم يظهر رغبة في العفو والصفح، فلا هو بالمقبل على الانتقام ولا هو بالمقبل على العفو.

وليس بأوسعهم في الغنى

ولكن معروفه أوسع[1]

وقد وقع أبو محجن في بيته التاسع فيما وقع فيه البيت الثاني من هذه القصيدة، إذ ذكر في البيت الثاني أنهم يحامون ويدافعون إذا سما بصر الرعديدة الجبان[2]، وذكر في البيت التاسع أنه قد يكر وراء المحجر ـ المضيق عليه في الحرب ـ الشاخص البصر من شدة الفزع، وكان الأولى به- إبرازًا لشجاعته ـ أن يكر وراء الفرسان الشجعان الذين يضطرهم إلى الفرار أمامه.

ثم أنهى أبو محجن القصيدة بالحديث عن ترفعه عن الدنايا، وهجره سيئ الفعال وفاحش الأقوال، بل بعده كل البعد عما يقربه من الخبث أو يدينه من الرهق.

وعلى كل فإن أبا محجن كان واقعيًّا، صادقًا في عاطفته، صادقًا في تعبيراته، بعيدًا عن التكلف والاعتساف، هجم على موضوعه مكافحة، وتناوله مصافحة، فنالت هذه القصيدة ثناء النقاد، يقول أبو هلال ـ في مقدمته لشرح ديوانه ـ: "قد فضلت أبياته القافية على كل شعر قيل معناها[3]، ثم ذكر القصيدة.

وكان عمر بن الخطاب يفضل هذه الأبيات، ويتهم رأيه فيها فلا يذكر ذلك، إلى أن قال لعليﷺ: من أشعر الناس؟ قال: الذي أحسن الوصف، وأحكم الرصف، وقال الحق، فقال عمر: ومن هو؟ قال: أبو محجن في قوله:

---

(١) الصناعتين ص١١٥-١١٦.

(٢) راجع ص ٩.

(٣) شرح ديوان أبي محجن لأبي هلال العسكري ص ٢٤.

"لا تسألي الناس عن مالي وكثرته"، فقال عمر: أيدتني يا أبا الحسن أيدك الله، فما زلت مؤيدًا في كل خير، وهذا أول ما قيل: أيدك الله.

قال الشعبي: فلم يكن في الحى فتى لا يحفظ هذه الأبيات فتعد له مروءة[1] .

(١) المرجع السابق ص٣٠.

الفصل السادس

في البحث الأدبي

الفصل السادس

في البحث الأدبي

أولاً : مفهوم البحث الأدبي:

يطلق البحث الأدبي في اللغة على الحفر والتنقيب والتفتيش، يقال بحث الأرض إذا حفرها، وبحث الشيء إذا فتش عنه ونقب وبحث الأمر إذا اجتهد فيه وتعرف حقيقته، وبحث عن الأمر إذا سأل عنه واستقصى، فهو باحث وبحاث وبحاثة[1].

والبحث العلمي لا يكاد يخرج عن هذه المعاني، فهو بذل الجهد في عمل موضوعي جاد بغية الوصول إلى حقيقة معينة، أو تجلية قضية، أو حسم الأمر في مشكلة من مشكلات المعرفة الإنسانية[2] .

ويطلق البحث الأدبي على كل عمل يقوم به الباحث ليكشف عن الحقيقة في قضية أدبية .

ثانيا: مناهج البحث الأدبى :

أ ـ المنهج الفني:

ويقوم هذا المنهج على دراسة الأعمال الأدبية دراسة فنية من جهة شكلها ومضمونها.

---

(١) المعجم الوسيط: مادة "بحث".

(٢) مقدمة في أصول البحث العلمي وتحقيق التراث، أ.د/ السيد رزق الطويل ص١٠، ط دار الهدى للطباعة سنة ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

وبيان ما فيها من عوامل الإحسان أو أسباب الضعف مع التعليل لذلك تعليلا فنيا.

وهذا المنهج يحتاج إلى خبرة ودراية ويكون – إلى حد كبير– غير يسير على الناشئة الذين يكونون في بداية حياتهم العلمية أو البحثية – كما أنه لا غنى لمن يسلك هذا المنهج عن التعرف على حياة الأديب وبيئته ونفسيته.

ب – المنهج التاريخى:

ويقوم هذا المنهج على أساس أن الأديب ابن عصره، وأدبه صورة لهذا العصر " ولفهم هذا الأدب لابد من دراسة العصر سياسيا واجتماعيا ومعرفة قيم وأخلاقه ومشاكله الاقتصادية وغير ذلك من المؤثرات في العصر حتى نستطيع أن نفهم الأدب على وجه سديد [1].

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأدب ينبغي أن يرد إلى المؤثرات العامة التي تعمل فيه، فمثله مثل الشجرة، تكون نتيجة مباشرة للتربة التي نمت فيها وآتت أكلها، ولابد لفهم الأدب من الرجوع إلى التربة التي أنبتته والعوامل التي أثرت فيه، وتتمثل هذه العوامل في الجنس والبيئة والزمان، فلكل جنس خواصه، ولكل بيئة ميزات إقليمية وجغرافية خاصة، ولكل عصر أحداثه وظروفه السياسية والاقتصادية والدينية، وتلك هي قوانين الأدب الثلاثة[2].

على أننا ننبه هنا إلى أمرين:

١ – أنه ينبغي ألا يأخذ هذا المذهب على إطلاقه، فقد ينشأ الشاعران فى عصر وأحد ويكون بينهما من التفاوت فى الأسلوب أو النزعة والاتجاه

---

(١) محاضرات فى النقد الأدبى، أ . د / محمد عرفة المغربى ص ١٠ ، ط المؤلف ".

(٢) فى النقد الأدبى، د / شوقى ضيف ص ٣٨ ،ط . دار المعارف ١٩٨٨م.

ما بين أبناء العصور المختلفة[1] فإذا كان الأديب ابن بيئته وعصره ، فإن لكل أديب من ظروف نشأته وتكوينه وحياته الخاصة ما يطبع فكره وأسلوبه بطوابع معينة

٢ – أن بعض الباحثين يسرفون فى استخدام هذا المنهج فتأتي أعمالهم إلى التاريخ أقرب منها إلى فن الأدب.

والأولى بالباحث المدقق أن يستفيد بالأحداث التاريخية والأحوال الاجتماعية، ويوظفها لخدمة غرضه عندما يقوم بتحليل عمل الأديب، أو تفسير ظاهرة أدبية ، على أن يتذكر دائمًا أنه باحث أدبي لا مؤرخ.

ج ـ المنهج النفسي:

مدت بحوث التحليل النفسى رواقها على الأدب والدراسات الأدبية، وأعجب بعض دارسي الأدب وناقديه بنظريات مدرسة التحليل النفسي تزعمها "سيجموند فرويد"، ونماها تلميذه "يونج" و "أدلر" وهي المدرسة التي فسرت فكر الإنسان ونزوعه وسلوكه ونشاطه كله بالغريزة الجنسية" [2].

وقد ألقت هذه المدرسة بظلالها على الأدب، فأخذ من تأثروا بها يعللون الجودة والرداءة فى الأدب بالقيم النفسية، ومدى التأثير النفسي فى

---

(١) محاضرات فى النقد الأدبى، أ . د / محمد عرفة المغربى ص ١١.

(٢) المذاهب النقدية بين النظرية والتطبيق لأستاذنا الدكتور محمد السعدى فرهود ص ١٣٢ ، ط المؤلف، سنة ١٩٧٣م.

القارئ ، فهذه القصيدة أجود من تلك لقيمة نفسية تحتويها لا لقيمة مادية أو جمالية أو أخلاقية [١].

ويمكن أن نستفيد بالدراسات النفسية فى التعرف على شخصية الأديب، وتحديد إطارها، على ضوء دراسة المواقف النفسية التي يراها الباحث فى اعترافات الأديب ورسائله وانعكاسات الأحداث الخارجية على نفسه[٢].

ويمكن أن نستفيد منها استغلال مقياس "الاستقصاء النفسي" ، لأديب بعينه، أو لعدة أدباء بأعيانهم، لتبيين العلاقة بين الحالة الذهنية للأديب – أو للأدباء – وخصائص نتاجه أو نتاجهم [٣].

ومع ذلك فإننا نحذر من الجري – دون تفكير – وراء نظريات هذه المدرسة التي تصور الإنسان على أنه حيوان جنسي، وتكاد تعرفه بذلك غير عابئة بالدين أو الأخلاق والقيم.

---

(١) فى النقد الأدبى، د / شوقى ضيف ص ٤٢.

(٢) انظر : قضايا النقد الأدبى الحديث لأستاذنا الدكتور / محمد السعدى فرهود ص ١٥.

(٣) المرجع السابق : الموضع السابق .

الخطوات التي يتبعها الباحث عند كتابته بحثا أدبيا:

وترجع فى جملتها إلى النقاط الآتية:

أ اختيار الموضوع.

ب جمع وإعداد المادة العلمية.

ج الصياغة والإخراج.

د الفهارس.

أ ـ اختيار الموضوع:

يعد اختيار الموضوع من أهم المراحل التي يمر بها الباحث، فالباحث الجاد الصادق يشعر بمسئولية عظيمة عند اختيار موضوعة. لأنه لا يريد كتابة أي بحث يجتاز به مرحلة دراسية، أو يحصل به على درجة علمية وكفى، إنما يريد بحثا يخدم به دينه أو لغته وأمته، ويحقق فيه نتائج ذات قيمة يفيد بها معاصروه وطلابه والباحثون والدارسون من بعده.

واختيار موضوع البحث يدل دلالة واضحة على عقل صاحبه. وعلمه وخبرته بالمادة التي يقوم بالبحث فيها. فهو حصيلة جهد ومثابرة، واطلاع واسع، وخبرة لاحتياجات الفن الذي يبحث فيه" [1]، لذا ينبغي على الباحث أن يقوم – أولا – بالقراءة والاطلاع الواسع فى مجال تخصصه حتى يقف على ما بحث، وما لم يبحث، وما يحتاج إلى المزيد من البحث.

---

(١) انظر : مقدمة فى أصول البحث العلمى وتحقيق التراث، أ . د / السيد رزق الطويل ص ١٧.

وإذا اهتدى الباحث إلى موضوع ما فعليه أن يسال نفسه هذه الأسئلة :

١- ما الذي يمكن أن يضيفه هذا الموضوع إلى مكتبة الدراسات الأدبية ؟

وهل يستحق ما يبذل فيه من جهد وعرق ؟

٢. هل أجد فى نفسى ميلاً شديدًا إلى هذا الموضوع يدفعنى بقوة إلى تناوله وبحثه ؟

٣. هل فى طاقتى وقدرتى ما يمكننى من الوفاء بحق هذا الموضوع ؟

٤. أمن الممكن كتابة بحث أو رسالة فى هذا الموضوع ؟

ويؤكد على هذا السؤال الأخير إذا كان الموضوع سيقدم لنيل درجة علمية كأن يكون رسالة "ماجستير" أو رسالة "دكتوراه" أو نحو ذلك.

فإذا كانت الإجابة على هذه الأسئلة بالإيجاب فليستعن بالله على بحثه، ولا يبخل عليه بجهد أو وقت أو مال، وإن كانت الإجابة بالنفي فى أي من هذه الأسئلة فليحاول موضوعا آخر دون أن يضيع وقته ونشاطه فى دراسة لن تكتمل لها عناصر النجاح [1]".

ب- إعداد المادة العلمية:

وتتلخص أهم النقاط التي ينبغي أن يتبعها الباحث فى جمع مادته العلمية فيما يلي:

١ - استقصاء كل المصادر والمراجع والدوريات والرسائل العلمية الجامعية التى تناولت موضوع بحثه أو تعرضت له :

---

(١) انظر : كيف تكتب بحثا أو رسالة ؟ ، أ . د / أحمد شلبى ص ٣٦ .

ويمكن للباحث أن يستعين ـ فى هذا الشأن ـ بتوجيهات أستاذه وأساتذته وأهل الخبرة فى الفن الذي يبحث فيه، وعليه أن يقوم باستقراء واف لفهارس دور الكتب ، وفهارس الرسائل الجامعية التي تتصل بموضوعه، وأن يقوم بزيارات متعددة للمكتبات ومعارض الكتب باحثا عما يخدم موضوعه أو يتصل به :

٢ – أن يعمد إلى المصادر المحققة الموثوق من صحتها، المعتد بآراء أصحابها وأن ينأى عن المصادر الضعيفة والمطعون فى أصحابها، فإن اضطر إلى التعرض لها أو النقل عنها كان حذرًا ، متحليا بالفطنة وعمق النظر.

٣– ألا يتسرع فى النقل فينقل ما لا يتصل بموضوعه، فتتكاثر عليه الأوراق التي قد يصعب عليه التعامل معها، فيقع فى الحشو والتخبط، والخروج بالموضوع عن الإطار الذي رسم له بل عليه أن يتأنى ويتمهل فلا ينقل نصا إلا بعد أن يفكر مرات ومرات فى مكان هذا النص من موضوعه، ومدى اتصاله به.

٤ – أن يقوم بتنظيم المادة العلمية فى أثناء جمعها، بأن يجمع ما يتصل بفصل واحد، أو مبحث واحد، أو فكرة واحدة بعضه إلى بعض، ويضم النظير إلى نظيره، فإن ذلك سيوفر عليه الكثير من الجهد والوقت عند صياغة بحثه.

ج ـ الصياغة والإخراج:

وتأتي هذه المرحلة بعد أن تتم دراسة الموضوع من خلال المصادر والمراجع، وتكتمل صورته فى ذهن الباحث، ثم يبدأ فى كتابة بحثه [1].

وتعد هذه المرحلة من أهم مراحل البحث ـ إن لم تكن أهمها على الإطلاق ـ إذ تظهر من خلالها شخصية الباحث ، ومدى فهمه لموضوعه أو استيعابه إياه، بل يظهر فى خلالها – أيضًا – مدى تمكن الباحث من الفن الذي بحث فيه. ومدى إلمامه بقواعد البحث وأصوله.

وعلى الباحث الأدبى فى هذه المرحلة أى يعنى بالنقاط الآتية :

١- أن تأتي صياغته فى أسلوب أدبي، فيحرص على فصاحة الكلمة، ودقة وسلامة العبارة، وينأى عن التكرار والحشو والتعقيد.

٢- ألا تأتي العناية بالأسلوب على حساب المضمون، وألا تطغى النزعة الخطابية على تقرير الحقائق العلمية، فالباحث المجيد هو من يوائم بين ألفاظه ومعانيه، ويتمكن من صياغة الحقائق العلمية فى أسلوب أدبي.

٣- أن يرتب أفكاره ترتيبًا علميًا ومنطقيًا بحيث تكون كل فكرة مبنية على ما قبلها ممهدة لما بعدها، غير قلقة ولا نابية فى موضعها على أن تندرج الأفكار تحت المباحث، والمباحث تحت الفصول، والفصول تحت البواب، والأبواب تحت العنوان اندراجًا صحيحًا ومنطقيًا.

٤- أن يتحرى قواعد اللغة، وقواعد الإملاء، ويجتهد فى إخراج بحثه إخراجا صحيحا من الناحيتين اللغوية والإملائية.

٥- مراعاة علامات الترقيم.

---

(١) مقدمة فى أصول البحث العلمى وتحقيق التراث، أ . د / السيد رزق الطويل ص ٢٨".

د ـ الفهارس:

تعد الفهارس من لوازم البحث الحديث، لأنها تؤدي مهمة جليلة القدر على طريق البحث العلمي وبناء المعارف الإنسانية، إذ إنها توفر للباحثين وقتا كبيرا وجهدا أكبر، وتيسر لطالب العلم فى كل زمان ومكان ما يحتاج إليه من بحث غيره بجهد يسير ووقت وجيز [1].

وتشمل الفهارس ما يأتي:

١- الآيات القرآنية،وترتب وفق الترتيب المصحفي للسور والآيات.

٢- الأحاديث النبوية، وترتب ترتيبًا هجائيًا حسب الحرف الأول فالذي يليه من الكلمة الأولى فى الحديث، أو على ترتيب أصحاب الصحاح أو السنن أو المسانيد، على أن يفصح الباحث عن منهجه فى الترتيب.

٣- الأمثال، وترتب ترتيبًا هجائيًا.

٤- الأشعار، وترتب حسب القافية والروي، مع مراعاة حركة الروي، فيبدأ بالمضموم، فالمفتوح، فالمكسور، فالساكن.

٥- الأعلام مرتبة ترتيبًا هجائيًا.

٦- الأماكن والقبائل مرتبة ترتيبًا هجائيًا.

(١) انظر : مقدمة فى أصول البحث العلمى وتحقيق التراث، أ . د / السيد رزق الطويل ص ٣١.

٧- المصادر والمراجع مرتبة ترتيبًا هجائيًـا حسب عنوان الكتاب، أو حسب أسماء المؤلفين.

٨- الموضوعات.

ويمكن للباحث حسب طبيعة بحثه أن يزيد فهارس أخـرى أو يختصر من هذه الفهارس المذكورة[١].

(١) انظر : المرجع السابق ص ٣٣.

أهم المصادر والمراجع

١- أثر الإسلام فى الشعر فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين، د/السيد عبد القادر عويضة ط/مطبغة الأماني ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

٢- الأدب الإسلامي فى عصره الأول ، أ.د/ صلاح الدين محمد عبد التواب– ط المؤلف ١٤١٢هـ ١٩٩١م.

٣- إعجاز القرآن للباقلاني بهامش الإتقان للسيوطي، ط/دار المعرفة، بيروت.

٤- إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية للرافعي مطبعة المقتطف، والمقطم مصر ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م.

٥- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، مطبعة التقدم بمصر.

٦- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق أ/عبد السلام هارون ط دار الجيل بيروت.

٧- تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/دار المعارف.

٨- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، ط دار صادر بيروت.

٩- حسان بن ثابت لمحمد إبراهيم جمعة ، ط دار المعارف ـ سلسلة نوابغ الفكر العربي.

١٠- دراسات في الأدب العربي، أ.د/طاهر عبد اللطيف عوض، ط المؤلف ١٩٩٠م.

١١- دلائل الإعجاز للإمام عبد القادر الجرجاني، تحقيق الأستاذ/محمود شاكر، نشر مكتبة الخانجي ١٩٨٤م.

١٢- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق د/ سيد حنفي حسنين، ط/دار المعارف ١٩٨٣م.

١٣- روح المعاني للألوسي، ط المركز الإسلامي نشر مكتبة دار التراث.

١٤- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا، نشر دار التراث العربي.

١٥- شرح قصيدة كعب بن زهير تحقيق ، د/محمود حسن أبو ناجي ، ط/دار مؤسسة دار علوم القرآن دمشق ١٩٨٤م.

١٦- الشعر والشعراء لابن قتيبة، ط دار إحياء العلوم بيروت، وطبعة دار المعارف بمصر.

١٧- طبقات فحول الشعراء لابن سلام، تحقيق الشيخ/محمود شاكر، ط/المدني ١٩٧٤م.

١٨- العصر الإسلامي د/شوقي ضيف، ط دار المعارف ١٩٨٦م.

١٩- العمدة لابن رشيق تحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد ط دار الجيل بيروت.

٢٠- مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية، د/عبد الحليم حنفي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م.

٢١- مقدمة في أصول البحث العلمي ، وتحقيق التراث أ. د/ السيد رزق الطويل، ط دار الهدى ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	
الفصل الأول: القرآن الكريم وأثره في اللغة والأدب	
الفصل الثاني: الحديث النبوي وأثره في اللغة والأدب	
الفصل الثالث: الخطابة في عصر صدر الإسلام	
الفصل الرابع: الشعر في عصر صدر الإسلام	
الفصل الخامس: تراجم ونصوص مختارة	
الفصل السادس: في البحث الأدبي	
أهم المصادر والمراجع	
فهرس الموضوعات	